محمد الغزالي

الرسالة السادسة والثلاثون

القرآن الكريم

بلاغة وإيجاز وإبداع وإعجاز

أشرف على طباعتها

غالب سنجقدار

إمام وخطيب جامع طينال الأثري

طبعت على نفقة محسن كريم

لتوزع مجانا صدقة جارية لروح والدتـــه

منشورات : جمعية التوجيه الاسلامي الخيرية

طرابلس - لبنان

رجب ١٤٠٣ هجرية
نيسان ١٩٨٣ م

جميع المراسلات باسم : **جمعية التوجيه الاسلامي**
طرابلس ــ لبنان ــ صندوق البريد ٣٠٤ ــ برقيا : التوجيه
هاتــف ٦٢٨٠١٢

هذه الرسالة

وجدتها بين كتب قديمة يلهو بها الصغار وقد تمزق شيء منها ونزع غلافها ، كتب عليها بخط اليد « رسالة القرآن » للشيخ محمد الغزالي .

استرعى انتباهي اسمها واسم مؤلفها ، فأردت ان اضيفها الى مجموعة الرسائل التي تنشرها « جمعية التوجيه الاسلامي الخيرية » .

وهذه الرسالة من اهم ما نشرته الجمعية ، وحسبك ان موضوعها : القرآن الكريم وما يحوي من بلاغة وبيان وابداع واعجاز ، ومؤلفها : الشيخ محمد الغزالي صاحب المدرسة الغزالية الحديثة وهو الكاتب الاسلامي المعروف بغيرته الاسلامية وقد وقف قلمه الذب عن حياض الاسلام ومؤلفاته تحكي ذلك وقد آتاه الله غزارة في العلم وسعة في الاطلاع .

ولقد تبرع احد المحسنين بتكاليف طباعتها لتوزع « مجانا » عن روح والدته ، وآثر ان لا يكتب اسمه بغية مضاعفة الاجر — ان شاء الله — .

ورسالتنا هذه السادسة والثلاثون من سلسلة الرسائل التي تصدرها جمعيتنا في طرابلس — لبنان نضعها بين ايدي المسلمين ولا سيما الشباب المتعلم ليقفوا على عظمة القرآن الكريم في تشريعه واعجازه واسلوبه وبيانه وبلاغته الذي يتبين منها صلاحه لكل زمان ومكان ، وما اجمل ما شدا به الشاعر في وصفه حيث قال :

جمع البيان مبوبا ابوابا
نور من الرحمن صيغ كتابا
او قل هو الروض النضير تفتحت
فيه الازاهر فاستبى الالبابا

او قـــل هو الشهد البرىء من الاذى

او قـــل هو الثمـــر الذي قـــد طابـــا

شريعة الهية كاملة ، وعقيدة سماوية مثلى ، ونور مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه .

وننتهزها فرصة لدعوة ذوي الضمائر الحية والغيرة الاسلاميـــــة الصحيحة لمساعدتنا في طبع امثال هذه الرسائل ، فهي علم ينتفع به وصدقة جارية باق اجرها الى يوم القيامة ـــ ان شاء الله ـــ .

وقد وضعنا في آخر هذه الرسالة قسيمة اشتراك لمن اراد مشاطرتنا الاجر والثواب فاملأها يا اخي المسلم وارسلها الينا ولا تبخل فالمال مال الله.

وفقنا الله جميعا للخيرات وفعل المبـــرات .

امام وخطيب جامع طينال الاثري
غالب عادل سنجقدار

مقدمـــة

تنتشر بين أيدي الناس كتب كثيرة متفاوتة القيم متباينة الموضوع والغاية والناس يقبلون عليها ببواعث شتى ، يتلمس كل امرىء في صحائفها ما يشبع نهمته ، ويحقق رغبته . . .

ومن حق أي انسان أن يدع هذا الكتاب جانبا ويأخذ ذاك .

ومن حقه ان يرى في هذا من التجاوب مع نفسه والتلاقي مع هدفه ما لا يرى في غيره . . .

بيد ان هناك كتابا قد استجمع من حقائق الازل والابد ، واستوفى من هدايات الارض والسماء ، واستوقد من منارات الفكر والضمير ، واستوحى من صميم الانفس والجماعات . . ما لم يعرف ولن يعرف لكتاب آخر . . ذاكم القرآن الكريم .

« ذلك الكتاب . . » .

اما ما عداه فما يذكر الى جانبه الا تجوزا .

والسر ان الكتب الاخرى قلما تخلو من خير ، ولكن الخير المبثوث فيها كالذهب في مناجمه ، والحديد في مواطنه « لا يوجد احدهما خالصا من الشوائب العالقة به ، فمع كل مقدار من المعدن الخالص مقادير مركومة من الاخلاط والاتربة » .

لكن هذا القرآن ذهب خالص لا يشوبه كدر ، وحق محض لا يمازجه باطل « ذلك الكتاب لا ريب فيه » . .

لقد كان هذا القرآن الكريم دعامة أمة كبيرة نشأت عليه ، ونمت في كنفه ، واسدت للعالم يدا لا تنسى ووثبت بالحضارة الانسانية وثبة بعيدة المدى في ميادين الفكر والخلق والسياسة والاجتماع ..

ان هذا القرآن ليس فقط اساس امة اضاءت على العالم كله الخير الجزيل ، بل هو سياج هذه الامة وضمان بقائها والحصن الذي أعي المستعمرين ورد كيدهم في نحورهم .

وانك لتسمع الرئيس الانجليزي «غلادستون» يصرح بهذا القصد في علانية لا تنقصها القحة .

ففي اواخر القرن الماضي وقف هذا الرجل في مجلس العموم يصيح في اعضائه « ان العقبة الكؤود امام استقرارنا بمستعمراتنا في بلاد الاسلام ولا بد من القضاء عليهما مهما كلفنا الامر .

اولهما هذا الكتاب — يعني القرآن الكريم —

وسكت قليلا ، ثم اتجه نحو الشرق مشيرا بيده اليسرى قائلا : و «هذه الكعبة» والواقع ان ما ذكره في جلاء وحنق رئيس وزراء انجلترا كان يفسر موقف الاستعمار الغربي نحو القرآن .

فلا عجب اذا اهتم المسلمون بكتابهم العزيز واقبلوا على دراسته، وتواصوا بحفظه وتدبر آياته ..

* * *

وفي هذه الرسالة بحث موجز ، حول جمع القرآن وفنون اعجازه ، نرجو ان تكون خلاصة حسنة لآراء العلماء في ذلك الموضوع .

محمد الغزالي

ثبوت القرآن ..!

من قرون سحيقة ، والشمس — في مرآى العين — هي الشمس لم تتغير على تعاقب الاجيال ، ولم تزد ولم تنقص على اختلاف الليل والنهار !!..

ومن قرون سحيقة ، والقمر — في مرآى العين — هو القمر ، لا يزال بين الخلف والسلف مستدير القرص ، هادىء النور ، لم يطرأ عليه مع اطراد الزمان تبديل ، ولا نالت منه « عوامل التعرية » التي يقول العلماء : انها تنقص الجبال الرواسي وتبريها ، طولا وعرضا ..!!

ونحن المسلمين نرى القرآن الكريم حقيقة علمية ثابتة كهذه الحقائق الكونية الدائمة ، فهو منذ بدأ لم يزد حرفا ، ولم ينقص ..!!

نقله جبريل عن الله بأمانة ، ونقله كذلك محمد صلى الله عليه وسلم عن جبريل ، ونقله الصحابة عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم تتابعت الجماهير الغفيرة ، تنقله عبر القرون ، حتى بلغت به الينا مثلما نزل قبل اربعة عشر قرنا ، وسنورثه نحن غيرنا بهذه الهيئة المكتملة المصونة ، وسيظل الحفظة يروونه للاعصار المقبلة الى ان ينفض سرادق الحياة والاحياء ، وينقلب الناس جميعا الى الله .. !!

لا ، بل سيظل القرآن في العالم الآخر باقيا يتلوه اهله على النحو الذي نزل به امين الوحي لاول مرة ، وفي الحديث : « يقال لقارىء القرآن : اقرأ ، وارق ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فان منزلك عند آخر آية تقرؤها(١) » .. !!

---

(١) ابو داود والترمذي .

ان هذا القرآن قد اختصه الله بالحفظ والخلود ، فهو حقيقة محصنة من التحريف ، وهو حقيقة تغالب الفناء وتغلبه .. !!

وليست هذه دعوى تقوم على حماس العاطفة ، وتعصب الايمان ، فان الذي نقوله هو منطق التاريخ ، ومنطق التاريخ هنا يستقر في الاذهان ، لا بالاستنتاج والحدس واستنطاق الآثار ، بل بالحس القائم على الرؤية والسماع ..!!

ان الادلة التاريخية المختلفة قد ترشح ببعض الحق ، اما الحالة بالنسبة للقرآن فان الشواهد على صدقه تجيء سيلا غدقا ، ينفي بطبيعته الشبه ، ويؤسس اليتين تأسيسا ..!!

والطريق الاول في اخذ القرآن عن صاحب الوحي ، ثم في انتشاره بعد بين الناس . هو التلقي بالمشافهة على سبيل التواتر والاستفاضة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقرا ما يجيئه من عند الله ، والصحابة يسمعون منه بآذانهم ، فيعرفون منه حقيقة النظم القرآني ، واسلوب ادائه معا ، كأنواع المدود ومخارج الحروف وما الى ذلك .

وهذا الضرب من التلقي لم ينتقل به القرآن الكريم من الرسول صلى الله عليه وسلم الى اصحابه مرة واحدة اعقبها صمت طويل . كلا : فان تكرار القراءة جعل تداول الوحي الاعلى امرا مفروضا ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يحفظه ، واصحابه الآخذون عنه يحفظون ، ثم يعود هذا المحفوظ الى الظهور في الصلوات الموقوتة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقرا ، والصحابة يستمعون .

واذا اراد اي مسلم ان يتعبد ، قرا في جوف الليل ، او في وضح النهار، واذا اراد ان يتغنى بالقرآن فعل ، واذا اراد ان يخطب به فعل ، واذا اراد ان يدرسه فعل ، وهكذا . ما ان ينزل شيء من القرآن حتى تستوعبه الصدور ، ثم ترتده في كل افق ، لا في يوم او عام ، بل في قرابة ربع قرن ، وليس مع رجل واحد ، او قبيلة واحدة ، بل بين الالوف المؤلفة من الناس !!

ان هذه « الاشرطة » الحية لم تكن فقط مستودعا يحفظ القرآن لتتيسر

عند اللزوم اذاعته ، بل كانت تهدر بآيات الله آناء الليل ، واطراف النهار ، في حلق الذكر ومجالس العلم ، ومحاريب الصلاة ، وخطب الجمع ، والمجامع العـــامة . . !!

وبهذا التواتر الرائع ثبت القرآن ثبوتا لا مجال فيه لظنون او اوهام !!

وعلماء المسلمين يعتمدون على طريق التلقي هذه ، ويرجعون اليها وحدها في علوم التجويد والاداء . قال السيوطي : والامة كما هي متعبـــدة بفهم معاني القرآن واحكامه ، متعبدة بتصحيح الفاظه ، واقامة حروفه على الصفة المتلقاة من الائمة القراء وهي الصفة المتصلة بالحضرة النبوية ، **اي انه لا يكفي الاخذ من المصاحف بدون تلق عن افواه المشايخ المتقنين للتلاوة** . يدل على ذلك ما رواه الطبراني وغيره عن مسعود بن زيد الكندي قال : « كان عبدالله بن مسعود يقرىء رجلا ، فقرا الآية « انما الصدقـــات للفقـــراء والمساكين والعاملين عليها » (٢) قراءة مرسلة خطف فيها المدود فلم يشبعها كما ينبغي ، فقال عبدالله بن مسعود : ما هكذا اقرانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فقال الرجل كيف اقراكها يا ابا عبدالرحمن ؟ قـــال : اقرانيها : « انما الصدقات للفقراء . . » ومد الفقراء المد اللازم المعروف .

وشيوع القرآن الكريم على هذه الصفة الواسعة الراسخة لم يجيء عفوا ، وانما مهدت له اسباب فعالة نوجزها هنا :

(١) فالعرب في فجر الاسلام كانوا امة لها خاصة بارزة في مآثرها ومفاخرها هي تذوق الادب العالي ، والاقبال عليه . ونحن نعرف الامم الآن بخلائق معينة تشيع فيها ، واطعمة مادية وادبية تلتصق ببيئتها ، ففن البناء مثلا يبلغ ان يكون غريزة في الايطاليين ، ويستطيع النقاد ان يحصوا معالم المجتمعات في القارات الخمس ويذكروا الى جانب الصفات الانسانية المشتركة صفة خاصة ، اظهر واذيع في قوم دون آخرين . .

والعرب قوم كانت تزدهيهم العبارة البليغة ، ويرون المثل الاعلى للنبوغ في قصيدة جيدة ، او كلمة حكيمة ، وقد ارادوا ابراز آثارهم التي تكشف

---

(٢) التوبة : ٦٠

عن نواحي العظمة فيهم ، فكانت المعلقات السبع .. !! كانت صناعة الكلام لديهم تضارع في زماننا هذا ارقى الصناعات التي تنتجها الامم ، وتقيم لهـا المعارض ، وتدعو لها الزائرين !! وانك لتقرأ من ولوعهم بالادب ما يثـير العجب ..

أتعرف الصحابي الجليل عبدالله بن عباس ؟ انه استمع الى الشاعر الشيطان عمر بن ابي ربيعة في قصيدة غزل له تربى على السبعين بيتـا وحفظهـا ؟!

روى صاحب الامالي قال : اتى ابن عباس عمر بن ابي ربيعة فأنشده قصيدته :

أمن آل نعم انت غاد فمبكر غداة غـد ام رائح فمهجـر؟

حتى بلغ آخرها ، فقال ابن عباس : ان شئت اعدتها عليك !

فقيل له : او قد حفظتها ؟ قال : او منكم من يسمع شيئا ولا يحفظه ؟

وروى عن التابعي المحدث الفقيه الورع سعيد بن المسيب انه فاضل بين شاعرين وتلا ابياتا يحتج فيها لرأيه في ترجيح احدهما . قال صاحـب الامالي : فلما انقضى الكلام استغفر الله سعيد مائة مرة يعدها بالاصابع الخمس ! ..

وسعيد غلبته طبيعة البيئة وفطرة العرب فصنع ما صنع ، وهو لـم يرتكب اثما وانما رأى انه شغل نفسه بغير ما ينتظر من مثله .. !

ونخلص من ذلك الى تقرير حقيقة معروفة عن العرب ايام الرسالة ، هي ولوعهم بالآداب العليا ، وحفظهم لها ، وتنويههم بأصحابها .. !!

(٢) والقرآن الكريم ، وهو المعجزة الادبية الخالدة في لسان العرب ، ما ان ظهر حتى بهر !! ولا غرو ، فليس في تراث المستقدمين ولا المستأخرين نظير له . وقد استمع البلغاء له فهيمن على مشاعرهم ، ونفذت بلاغته الى

شغاف قلوبهم ، واذا كانوا يعجبون بألوان من البيان اقل بمراحل مما جاء في القرآن ، فكيف يكون انتباههم لهذا اللون الجديد من الحكمة التي هبطت عليهم ، واثارت دهشتهم ؟ انهم ـــ وهم عشاق الادب البحت ـــ واجدون فيه ما يروي غلتهم ، ويسكن تطلعهم الفني الى الكمال والجمال ، فكيف اذا امتزج هذا التقدير الادبي بالايمان الديني ؟ لا شك ان القرآن الكريم سيكون شغلهم بالليل والنهار .. ؟

والواقع ان الحديث الحسن النازل من عند الله اخذ يطرد سائر الاحاديث الاخرى من شعر ونثر ، فاذا العرب المؤمنون يدعون حفظ المنظوم والمنثور ويتوجهون الى حفظ الآيات البينات .. !

ان معجزة الاسلام واعمت طباعهم كما يتواعم الحق وغطاؤه ومن ثم رأينا جيوشا بأسرها تتألف من اولئك الحفاظ الواعين .

(٣) ثم ان الله عز وجل اراد ان يقي الاسلام ما اصاب الديانات الاولى من زيغ وتحريف ، فان بعض هذه الديانات تلاشت حقائقها جملة ، وتوارت في طوفان من الغفلة والضياع والبعض الآخر تطرق اليه التحريف والتبديل على نحو استخفت به الحقيقة وعز ادراكها .. !

ومن ثم اقتضت العناية العليا ان تصاغ الرسالة الجديدة في اطار من الجمال الادبي تتعلق القلوب بصيانته ، وتتلاقى على قداسته . بل ان الشكل اعتبر جزءا من الموضوع ، فان ألفاظ القرآن الكريم اعتبرت جزءا لا ينفصل عنه ، واصبحت قراءتها عبادة ، واصبح مجرد ترديدها قربى الى الله .. !

والتعلق بألفاظ القرآن نفسها على هذه الصورة انما قصد به تقوية السياج الذي يصون احكام الوحي ، وتوجيهات السماء ، فلا تتعرض رسالة الاسلام للفوضى التي سقطت فيها الديانات السابقة ، بعدما تزحزحت عن اصولها ، وتاهت عن منابعها الاولى ..!

وذلك يفسر لنا سر الترغيب الشديد في حفظ القرآن ، وادمان تلاوته ، وترديد آياته بين الحين والحين . وهاك بعض وصايا النبي صلى الله عليه وسلم التي تحث الامة على تعهد كتابها ، واحياء دراسته .

١ ــ « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »(٣) ..!

وقال : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر امثالها ، لا اقول الم حرف ، ولكن الف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »(٤) .

٢ ــ « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده »(٥) .. !

٣ ــ « القرآن شافع مشفع ، وما حل مصدق ، من جعله امامه قاده الى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره ساقه الى النار »(٦) ..!

٤ ــ » من قرأ القرآن وعمل به البس والداه تاجا يوم القيامة ضوؤه احسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا ، فما ظنكم بالذي عمل بهذا »(٧) ؟؟

٥ ــ وعن ابي ذر ، قلت : يا رسول الله أوصني ، قال : عليك بتقوى الله ، فانه رأس الامر كله ، قلت : يا رسول الله زدني : قال : عليك بتلاوة القرآن فانه نور لك في الارض ، وذخر لك في السماء (٨) .. !

٦ ــ « الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له اجران »(٩)..!

٧ ــ « من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه ، غير انه لا يوحي اليه ، لا ينبغي لصاحب القرآن ان يجد مع من وجد ، ولا ان يجهل مع من جهل ، وفي جوفه كلام الله »(١٠) .. !

---

(٣) البخاري .
(٤) الترمذي .
(٥) مسلم .
(٦) ابن حبان .
(٧) ابو داود .
(٨) ابن حبان .
(٩) البخاري ومسلم .
(١٠) رواه الحاكم .

٨ ــ « ان هذا القرآن مأدبة الله ، فاقبلوا مأدبته ما استطعتم ، ان هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، ولا يزيغ فيستعتب . ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فان الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، اما اني لا اقول لكم الم حرف ، ولكن الف ، ولام ، وميم»(١١) ..!

هذه التوجيهات ، غيض من فيض ، فان عشرات ومئات الاحاديث ترادفت على هذا السياق الواضح ، وتضافرت على ابقاء القرآن الكريم رطبا على الالسنة ، مكنونا في الصدور ، يتلى في البيوت والاسواق ، والمساجد والمحافل ، لا يزاد عليه ، ولا ينقص منه حرف واحد ..!

انه هو هو كما قرأه صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم من اربعة عشر قرنا ، يرويه عن جبريل ، عن الله جل شأنه ..!

وثبوت القرآن الكريم عن طريق التلقي والتواتر والاستفاضة هو احد طريقين يظاهر احدهما الآخر ويقويه ، وان كان الطريق الاول اشهر .. !

اما الطريق الثاني فهو الكتابة ، ذلك ان الكلام الالهي كما استوعبته صدور الحفاظ استوعبته سطور الصحف .. !

كانت الآيات تنزل فيبادر الكتبة الى تسجيلها ، ويخطون في صحائفهم معالمها ، وان كان هذا التسجيل يجيء كتوثيقات العقود في عصرنا ، اي بعد تمامها نفسيا او عمليا .. !

والعرب امة امية ، بيد ان شيوع الامية فيهم حتى لو وصلت نسبتها الى ٩٥٪ لا يبخس القلة الكاتبة حقها ، ولا ينقص خطرها، فليس من الضروري لثبوت الكتابة ان تطبع الوف النسخ من كتاب واحد ، بل يكفي ان توجد جملة من النسخ المتطابقة المتوافقة تتسق مع المحفوظ ويتم تسجيلها باشراف النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، وجهد كتبة الوحي معه ..!

---

(١١) المنذري .

وقد ظهرت صحف القرآن الكريم منذ بدأت الدعوة ، بل في الفترة السرية لانتشارها ، والامر لا يحتاج الى استنتاج فان اسم « الكتـــاب » علم يرادف اسم القرآن ، ويدل كلاهما دلالة متساوية على الوحي الالهي العزيز ..!

وهذا العلم المشهور يعرف في مكة ويعرف في المدينة على سواء ، ففي القرآن النازل بمكة ترى قوله تعالى : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم »(١٢) « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم »(١٣) ، « طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين »(١٤) الخ ..

وفي القرآن النازل بالمدينة ترى قوله تعالى :

« الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه »(١٥) ، « الم ، الله لا اله الا هـــو الحي القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق »(١٦) ..

والتنويه بشأن الصحف التي تحمل الوحي وتيسر للناس مطالعته مذكور في السور النازلة بمكة والمدينة جميعا ، وذلك كقوله جل شأنه :

« كلا انها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة»(١٧) ، وهي سورة مكية .. !

وقوله : « رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة »(١٨) والسورة مدنية ..!

---

(١٢) الجاثية : ١ ، ٢ .
(١٣) المؤمن : ١ ، ٢ .
(١٤) النمل : ١ .
(١٥) البقرة : ١ ، ٢
(١٦) آل عمران ١ — ٣
(١٧) عبس : ١١ — ١٦
(١٨) البينة : ٢ ، ٣

وعندي ان التنويه بوظيفة القلم في نشر هذه المعرفة السماوية وحفظ الكتابة في اشاعة هذا العلم ، واستبقائه على الزمن ، هو سر القسم في الآيات : « ن والقلم وما يسطرون ، ما انت بنعمة ربك بمجنون »(١٩) ..!

وانك لتقارن بين صدر هذه السورة وبين ختامها ، فيتأكد لديك هذا المعنى ، اذ ان ختام السورة : « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون ، وما هو الا ذكر للعالمين »(٢٠) ..

ولعل من الاشادة بحظ الكتابة في نشر القرآن قول الله عز وجل في اول آيات انزلت : « اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم »(٢١) ..

والذي يعنينا اظهار المدى الواسع الذي انتشرت فيه صحف الوحي ، فان القرآن المكتوب كان متداولا في دائرة رحبة ، وكان معروفا في كثير من البيوت التي يتقن اصحابها الكتابة . وقد شرعت له احكام فقهية خاصة ، منها الا يمسه جنب وألا يسافر به الى ارض العدو المحارب مخافة امتهانه ، وكان للوحي كتاب مخصوصون ، اشبه بالموظفين المنقطعين له ، يؤدون واجب التدوين في السفر والاقامة ، ويملي عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ما ينزل به الملك ، عدا الذين يكتبون لانفسهم ما يحفظونه او ما ينقلونه .

فلما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى ، كان القرآن كله محفوظا في الصدور ، وكان كذلك مثبتا في السطور .

---

(١٩) القلم : ١ ، ٢

(٢٠) القلم : ٥١ ، ٥٢

(٢١) العلق ٣ ــ ٥

كيف تم جمعه . . . ؟؟

عندما آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يذهب الى الرفيـــق الاعلى ، ترك هذه الدنيا بعد ما ادى رسالته انجح اداء .

تركها وللاسلام فيها دولة قائمة ، ودعوة واضحة ، وقوة مهيبة ، وسلطان يعصم دماء المؤمنين واموالهم ، ويرد نزوات السفهاء عنها .

تركها بعد ما استقر الوحي في صدور الرجال ، وبطون الكتب ، وانداحت(٢١) الدائرة التي يتلى فيها القرآن الكريم ، حتى بلغت ألف ألف ميل، من اقصى اليمن ، الى اطراف الشام ، ومن الخليج الفارسي ، الى شواطىء البحر الاحمر ! . .

ومما يجب التنويه به ان القرآن الكريم ـــ في فترة كفاح الدعوة ، وضغط الوثنية ـــ كان يتلى ويكتب دون مصادرة تنال من اصله . .

صحيح ان المشركين ضاقوا به ، وثاروا عليه ، بيد ان خصومتهم لـــه كانت تتخذ في التشويش عليه طرقا اخرى لا تتصل بجوهره . .

منها تلفيق كلمات تشبه سور القرآن ، وتتحدى اعجازه . .!

ومنها اللغط في مجالسه ، وافتعال ضجيج يمنع سماعه . . !

وهذه وتلك محاولات صبيانية ، لم تلبس ان ذابت في حرارة الجـــد وسطوة الحق . .!

---

(٢١) اتسعت .

والغريب ان معلمي القرآن وصلوا الى حد من الكثرة يستحق التأمل ، خصوصا في هذه الفترة المكافحة العصيبة . انظر كيف قتل سبعون قارئا في معركة بئر معونة(٢٢) ! ومع هذه الخسارة الفادحة فان معلمي القرآن في صحراء الجزيرة لم تقع بينهم ازمة ، بل ظلت وفودهم تنساب هنا وهناك من غير انقطاع .

فاذا كانت هذه حال القرآن ايام غربته ، وهو يشق طريقه بين الخصومات والعقبات ، فكيف تكون حاله بعدما رست دعائمه ؟ ووضحت معالمه ، وتكونت له دولة تأخذ لربها ونفسها ما تشاء ؟ . .

الحق ان الوجود الانساني منذ الازل لم يعرف كتابا توفرت له ضمانات الحفظ ، وتظاهرت حوله اسباب العصمة ، مثل ما عرف لهذا القرآن الكريم .

ان التواتر القوي يشد اسانيده من كل ناحية ! جماهير كثيفة تروي عن جماهير كثيفة ، وتبلغ في الاستقصاء ان تحصي كلمات السور ، بل تعد حروف الهجاء الموجودة بها حرفا حرفا .

وهذا على نقيض ما وقع لديانات اخرى لم تلق اصولها ذرة من هذه العناية .

ولنضرب النصرانية مثلا لهذا التفاوت .

ان البون بعيد بين الظروف التي مات فيها محمد صلى الله عليه وسلم، والظروف التي توفي فيها عيسى عليه السلام . كلا الرجلين نبي كريم ، بلغ رسالات الله بأمانة ووفاء ، غير ان الاسلام كان اسعد حظا في النجاة من اعدائه ، والغلب على مؤامراتهم من المسيحية التي تعرضت لخصومات عاصفة . . !

---

(٢٢) راجع السنة الرابعة من الهجرة في كتب السير .

كان عيسى بن مريم عليه السلام كأنما يقاتل في معركة انسحاب .

لقد اعتبر هو واتباعه خارجين على القانون السائد ، وخروج المصلحين على العرف القائم ، والتقاليد الموروثة امر لا يضيرهم ، بل قد يكون اساس شرفهم ، ومحور كرامتهم . وهنا يدور الصراع بين مبادىء ومبادىء ، وجيل وجيل ، ويحتدم النزاع بين الحق والباطل ، ريثما تجيء النتائج الحاسمة .

ويبدو ان الذين آمنوا بعيسى عليه السلام لم تكن لهم شوكة مرهوبة ، اما لقلتهم ، واما لضعف شأنهم ، واما لقوة اليهود والرومان الذين تألبوا عليهم .

ومن ثم جاء ختام هذا العراك مؤسفا ، فقد سير الرومان ثلة من رجال الشرطة القوا القبض على عيسى عليه السلام ! وقتلوه كما يقول النصارى ، وافلت من ايديهم كما نعتقد نحن المسلمين وطويت صحائف هذه الدعوة المضطهدة بهذا المصير الخطير ! وتبدد الاتباع شذر مذر ! وضاع الانجيل الذي انزله الله على نبيه ، فلم يعثر له على اثر الى يوم الناس هذا .

وكل ما اثر من تعاليمه بقايا اشاعها لفيف من كتاب سيرته بعد عشرات السنين من وفاته في احوال تحفها الريب ، ويغلب عليها التخليط والخبط، وسميت هذه السير المؤلفة اناجيل وليست هي البتة بالانجيل الذي انزل على نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام .

شتان بين هذه الاحوال ، وبين الاحوال التي اكتنفت صدر الاسلام فان اتباعه الاوائل — على ما شرحنا — صنعوا سياجا من حديد حول دعوته ، فلما حاول الباطل ان يفضها انكسرت انيابه حول كيان مصفح شديد .

واخذت السنون تمر وامر الاسلام في صعود ، والرقعة التي يسودها تتسع ، والافواج التي تدخل فيه تنمو ، وظل الوحي ينزل ثلاثا وعشرين سنة مات الرسول صلى الله عليه وسلم آخرها بعد ان رمق المصلين في مسجده ثم استنار وجهه كأنه مذهبة . ان القرآن يتلى في محرابه ، والجموع تنصت له في يقين وخشوع . والدنيا في طول الجزيرة وعرضها تدين له ، والحياة

الاجتماعية والسياسية تقوم عليه ، اي ان الامة والدولة كليهما سناد لهذا القرآن ، واشياع وحراس .

وحدث عن كتاب اصبح روح شعب ، ومراسيم حكومة .

ان العناية بأمره لن تحتاج الى تكلف ولا استكراه .

وقد بسطنا القول آنفا ان القرآن نزل كله ، وكتب كله ، وحفظ كله ، على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما استخلف ابو بكر وتولى شؤون المسلمين عن لاولي الامر ان يجمعوا الوثائق التي سجلت فيها آيات الكتاب العزيز ، وان يضموا بعضها الى بعض ، ليكون من هذه الاصول المكتوبة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مصحف واحد ، تحفظه « الدولة » لديها ، وهو وان اودع خزائنها لعدم الحاجة اليه في الحاضر ، فان المستقبل قد يتطلبه ! .

نعم لم تكن هناك حاجة عاجلة لهذا الجمع ، فان القراء كثرة مستفيضة، ورواية القرآن بالتلقي العام منتشرة بين جماهير المسلمين ، والكتابة وحدها لا تكفي كما بينا في القرآن وتعليمه . ذلك ان ضبط الاداء كما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه لا يكون الا مشافهة ، وهذا ما تظاهر المسلمون على حفظ القرآن به ، وان جاءت الكتابة الى جانبه سياجا بعد سياج .

وتذكر الروايات ان السبب المباشر في جمع القرآن — من وثائقه المكتوبة — هو توجس ابي بكر وعمر ، لاستشهاد عدد كبير من الحفاظ في حروب الردة .

ومقتل مئات من القراء ايام ابي بكر لا يضر بالقرآن شيئا في يومه القريب، فان حفاظه اربى من ذلك واغزر . بيد ان المعارك المتوقعة بين الحق والباطل قد تظل مشتعلة الاوار عصرا بعد عصر ، وقد تكون مسارعة هؤلاء الابطال الحفاظ الى خوضها سببا في ضياع التواتر الذي انفرد هذا القرآن به .

ومن ثم يجب جمع القرآن المكتوب ، وايداعه في حرز بيد الدولة ، تسكينا لهذا الوهم ، وهو وهم مبعثه كما ترى شدة الغيرة على القرآن .

وان كانت الايام لم تتمخض عنه ، ولا اقتربت منه فان الحفاظ الواعين كلما حصدت المعارك منهم نفرا ، نبت مكانهم مثلهم او ضعفهم .

ومع ذلك فان فكرة جمع القرآن المكتوب فكرة مقدورة مشكورة بلا ريب. وقد نفذها ابو بكر ، واليك رواية البخاري في هذا الشأن :

عن زيد بن ثابت قال : بعث الى ابو بكر ــ لمقتل اهل اليمامة وعنده عمر ، فقال ابو بكر : ان عمر جاءني . فقال : ان القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، واني اخشى ان يستحر القتل بالقراء في كل المواطن، فيذهب من القرآن كثير ! واني ارى ان تأمر بجمع القرآن ! قال : قلت لعمر : كيف افعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : هو والله خير ! فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر عمر ورأيت في ذلك الذي رأى عمر .

قال زيد : فقال ابو بكر : انك رجل شاب عاقل لا نتهمك قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ، فتتبع القرآن فاجمعه ! قال زيد فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان اثقل علي مما امرني به من جمع القرآن !! فقلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ؟ فقال ابو بكر : هو والله خير !! فلم يزل ابو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر ابي بكر.

وفي رواية ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر ابي بكر وعمر ، ورأيت في ذلك الذي رأيا ..

قال فتتبعت القرآن اجمعه من الرقاع والعسب(٢٣) واللخاف(٢٤) وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع ابي خزيمة الانصاري، فلم اجدها مع احد غيره « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم »(٢٥) .. فألحقتها في سورتها .

---

(٢٣) جريد النخل (٢٤) حجارة بيض رقاق واحدها لخفه (بفتح الخاء) .
(٢٥) التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩ .

قال : فكانت الصحف عند ابي بكر حياته ، حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله . ثم عند حفصة بنت عمر ..

وسياق هذا الحديث كما رواه البخاري يحتاج الى بيان وتوضيح ..

ما الذي كلف به زيد ؟ ان العمل الذي كلف به زيد هو جمع النصوص المتناثرة المكتوبة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي يحتفظ بها اناس كثيرون لانفسهم ، ثم تنسيق هذه الجذاذات والرقاع في ترتيب يوافق المحفوظ في صدور الرجال ..

وليس هذا الترتيب مستحدثا . فقد بدأ بتوقيف من الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ، اذ كان يأمر الكتبة كلما نزل وحي جديد ان يثبتوه في المكان الذي يذكر فيه كذا من القرآن النازل قبلا ..

ومهمة زيد ـــ والحالة هذه ـــ لا تعدو ضم ما تفرق هنا وهناك على نسق معهود له ولغيره من جمهور الحفظة ..

وزيادة في الاستيثاق كان لا يقبل من المكتوب الا ما شهد اثنان بأنه سجل بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو اشتراط لا تمليه الحيطة الزائدة فحسب ، بل هو تشدد بالغ ..

وهنا يحكي زيد ان ما يحفظه هو وغيره من ختام سورة براءة ، وجدوا له اصلا واحدا مكتوبا عند ابي خزيمة الانصاري ، وهو الرجل الذي اختصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بمزية يعرف بها وحده ، تلك ان شهادته تعدل شهادة رجلين . وبذلك تم لزيد ما ألزم به نفسه .

وماذا صنع زيد ، بل ماذا صنع رئيس الدولة بالمصحف الذي جمعه زيد ؟ احتفظ به عنده !! انه في نظري كوثائق العقود التي تودع للحاجة ، اما حقيقتها الخارجية فليست محل جدل ، لانها اشبه بالمحسوسات المادية الراسخة !! ..

وبقي سؤال اخير : لماذا دار هذا الحوار الوجل بين ابي بكر ووزيره ،

او بينهما وبين زيد بن ثابت ؟ يقول لفيف من العلماء : انه الحرص الدقيق على ابقاء الاوضاع كما كانت ايام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحذر من الاتيان بجديد لم يسبق اليه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، ولو كان هذا الجديد جمع القرآن في مصحف واحد ؟ !

وقد يكون ذلك سبب ما حدث من اخذ ورد ، وعندي ان هذا الموقف يعود الى استعظام اولئك الرجال لكلام الله ، واكبارهم لمهمة جمعه بأنفسهم وهم يرون اشخاصهم — على جلالتها — دون هذا العمل . فمثار التردد يعود الى غمطهم لانفسهم ، لا الى مشروعية هذا العمل ، ولذلك مضوا فيه دون تردد لما بدا لهم ان جوانب الخير فيه لا يجوز اهمالها .

وبقيت الصحف المجموعة في مستودعها العتيد لا يحتاج احد اليها ، او لا يشعر بها فان القراء يتلون كتاب الله عن ظهر قلب ، ويتدارسونه في بيوتهم ومحافلهم واسواقهم ومجامعهم دون ريبة ..

ولا نعرف — كما قلنا — كتابا في التاريخ لقي هذه الحفاوة ، او وجد ذلك الاقبال . وقد كانت سورة القتال(٢٦) تتلى احيانا في نشيد جماعي تهدر به الكتائب الغازية ، كما نرى هتاف الجموع في عصرنا بالنشيد القومي مثلا ابان فترات الحماس ..

ولم يقع شيء ذو بال بعد ذلك الا جمع المسلمين على المصحف الواحد الذي امرت الدولة بحفظ وثائقه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ذلك ان القرآن — كما يعرف علماؤه — نزل بوجوه عدة ، قرأ بها الرسول ، واقرأ بها غيره ويسر على المسلمين تلاوة ما يؤثرون منها . فهي جميعا سواء ..

ودلالتها على الوحي الاعلى كدلالة ليث واسد على الحقيقة المعروفة..

---

(٢٦) وهي سورة محمد صلى الله عليه وسلم .

نعم فان آية « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » يصح ان تتلى «وان جاءكم فاسق بنبأ فتثبتوا »(٢٧) كلتاهما سواء ، وليست احداهما بأكثر من الاخرى في شيء . .

بيد ان بعض الذين بلغهم وجه واحد من هذه القراءات ، ربما اعترضوا القارئين بالوجه الآخر ، وقد ينشب لذلك جدال يفضه اهل العلم فور وقوعه . لكن الامر مع انتشار المسلمين في انحاء العالم خيف ان يتفاقم ، وان ينشب حوله خصام ينال من قداسة الوحي نفسه . .

روى البخاري عن أنس بن مالك ان حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي اهل الشام في فتح ارمينية وأذربيجان مع اهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة . فقال حذيفة لعثمان : يا امير المؤمنين : ادرك هذه الامة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان الى حفصة ان ارسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها اليك ، فأرسلت بها اليه ، فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد ابن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف.

وقال عثمان للرهط القرشيين : اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فانما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة ، وارسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة او مصحف ان يحرق . .

وحسنا فعل عثمان ، فقد حسم بصنيعه هذا ما قد ينجم عن اختلاف الحروف من منازعات وبيلة ؛ وجمع الناس على وجه واحد صحيح افضل من تركهم مختلفين بين عدة وجوه ، ولو صحت كلها . .

ولعل تطير حذيفة ، وتجسيمه الخطر الموهوم ، سر ذلك التصرف ،

---

(٢٧) الحجرات : ٦

وان كنا لا نوافق حذيفة على ذهاب فكره الى ما حدث بين اهل الكتاب الاولين ، فالمدى بعيد بعيد ، بل لا وجه للشبه ، ولكنه وجل مشكور ، بعثت عليه الغيرة على سلامة الوحي ، وحفظ كلام الله عز وجل ..

وفي تلك المراحل التي مر بها جمع القرآن الكريم يقول شيخنا الزرقاني :

« نستطيع مما سبق ان نفرق بين مرات جمع القرآن في عهوده الثلاثة: عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وعهد ابي بكر ، وعهد عثمان رضي الله عنهما » .

فالجمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان عبارة عن كتابة الآيات وترتيبها ووضعها في مكانها الخاص من سورها ، ولكن مع بعثرة الكتابة ، وتفرقها بين عسب ، وعظام ، وحجارة ، ورقاع ، ونحو ذلك، حسبما تتيسر ادوات الكتابة . وكان من هذا الجمع زيادة التوثق للقرآن وان كان التعويل انائذ كان على الحفظ والاستظهار .

اما الجمع في عهد ابي بكر رضي الله عنه فقد كان عبارة عن نقل القرآن وكتابته في صحف مرتب الآيات ايضا ، مقتصرا فيه على ما لم تنسخ تلاوته مستوثقا له بالتواتر والاجماع . وكان الغرض منه تسجيل القرآن وتقييده بالكتابة مجموعا مرتبا خشية ذهاب شيء منه بموت حملته وحفاظه .

واما الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه ، فقد كان عبارة عن نقل ما في تلك الصحف في مصحف واحد امام ، واستنساخ مصاحف منه ترسل الى الآفاق الاسلامية ، ملاحظا فيها تلك المزايا السالف ذكرها مع ترتيب سوره وآياته جميعا . وكان الغرض منه اطفاء الفتنة التي اشتعلت بين المسلمين حين اختلفوا في قراءة القرآن ، وجمع شملهم ، وتوحيد كلمتهم ، والمحافظة على كتاب الله من التغيير والتبديل ، « لا تبديل لكلمات الله . ذلك هو الفوز العظيم »(٢٨) ..

---

(٢٨) يونس : ٦٤

ان ادق ما يوصف به عمل ابي بكر رضي الله عنه انه اجراء حكومي نحو تسجيل القرآن الكريم ، وضم جملة من الجذاذات الجامعة لسوره في حرز تحت يد الدولة .

اي ان القرآن كان مجموعا ، متميز السور والمعالم ، معروف البداية والنهاية ، قبل ان يفعل ابو بكر ما فعل ..

ويظهر ايضا ان الجذاذات الى تتبعها زيد هي التي اثبتها الكتبة بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم .

اما ما تناقله جمهور الكاتبين لانفسهم والمصاحف الكثيرة التي دون فيها الوحي كله عند الحفاظ من الصحابة ، فان زيدا لم يعرض لها ، بل تركها لاصحابها ..

والحق ان وصف ابي بكر بأنه الجامع الاول للقرآن ، ينطوي على تجوز كبير وكذلك اسباغ هذا الوصف على عثمان ، لانه امر بجمع الامة على وجه واحد من القراءة ..

وقد وردت احاديث صحيحة ، تكشف الغموض والاجمال الكافيين في قصة زيد بن ثابت وتكليفه بجمع القرآن ، كما رواها البخاري .

وهذه الاحاديث — التي سنشير اليها — هي التي تتفق مع التواتر القرآني الذي لا يرقى اليه ريب ..

وليت شعري ما قيمة روايات الاحاد اذا خالفت من قريب او بعيد ما تواتر من الروايات وبلغ حد اليقين ؟؟

لقد كان القرآن كتابا ، معدود السور ، مرتب الآيات ، مدونا في شتى المصاحف يتلى آناء الليل واطراف النهار على النحو المعهود للخاصة والعامة جميعا ، فلماذا يحتفي المؤلفون بطائفة من الروايات التي ربما اوهم ظاهرها غير هذا ؟

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو احيانا نحو ربع القـــرآن دفعة واحدة في احدى الركعات من صلاة الليـــل .

وعن عبدالله بن عمر جمعت القرآن فقرات به كل ليلة فبلغ ذلك النبي فقال : اقراه في شهر ، وروى مسروق قال : ذكر عبدالله بن عمرو عبدالله بن مسعود ثم قال : لا ازال احبه ، سمعت النبي يقول : خذوا القرآن مـــن اربعة ، من عبدالله بن مسعود وسالم ، ومعاذ ، وابي بن كعب ، وروى قتادة سألت انس بن مالك من جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : اربعة كلهم من الانصار ابي ، ومعاذ ، وزيد بن ثابت ، وابو زيد.

وظاهر ان انسا يذكر من يعرفهم ، ولا يحصر ، بدليل الحديث قبله، وبدليل ما روي كذلك عن الطبراني وابن عساكر عن الشعبي جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة من الانصار ، ابي بن كعب وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل،وابو الدرداء ، وسعيد بن عبيد وابو زيد ، ومجمع بن جارية وكان قد اخذه كله الا سورتين او ثلاثا ..

وهذه الروايات على سبيل التمثيل فحسب . والا فالحفاظ من الانصار والمهاجرين وابناء القبائل الاخرى جمهور غفير .. وقد مر بك انهم عشرات ومئـــات .

ثم ان تسمية الوحي الاعلى بالقرآن ليست اولى من تسميته بالكتاب فكلا اللفظين علم عليه .

وقد توفي صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم والقرآن متلو كله ومكتوب كله ..

ولا معنى لتسمية الشيء بأنه كتاب ، وهو غير مكتوب كما لا معنى لتسميته قرآنا وهو غير مقـــروء ..

* * *

وهنا نرى لزاما علينا ان نعتب على نفر من المشتغلين بالتصانيف

العلمية أولع بتلقف روايات الآحاد ـــ التي لا تستقيم مع ما افاده التواتر من يقين ـــ وشغل نفسه وشغل الناس معه بمناقشتها مع انه كان ينبغي رفضها شكلا قبل رفضها موضوعا ..

ولعل الرغبة في تحبير الصحف وملء فراغها هو سر هذا التصرف كهذا المحرر الذي وجد بقية في جريدته لم تكتب ، فاختلق خبرا عن حريق اندلع في احد البلاد ، ثم عقب عليه بأنه علم ـــ بعد ـــ ان النبأ مكذوب !!

ان هذا في نظري هو التفسير المعقول لتصرف رجل يروي عن ابن عباس ان قوله تعالى : « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها » اصلها حتى تستأذنوا ، ولكن الكاتب اخطأ فأثبتها حتى تستأنسوا .

اقرات هذا السخف ؟

الآية التي تليت في المحاريب والميادين وترددت في المجالس والمدارس ، واستفاض حفظها بين الالوف يجيء « مصنف » مذهول فيروي عن ابن عباس هذه الخرافة .

ما هـذا ؟ ..

وانظر ما كتبه الشيخ ابو شهبة حول هذه الحكاية .

ونسبة هذا القول الى ابن عباس غير صحيحة ، وهو لا شك من دس الملاحدة والزنادقة قال ابو حيان : من روى عن ابن عباس انه قال ذلك فهو طاعن في الاسلام ملحد في الدين .وابن‌عباس بريء من هذا القول ..

وقال الزمخشري في تفسيره : عن ابن عباس وسعيد بن جبير انما هو : حتى تستأذنوا فأخطأ الكاتب ، ولا يعول على هذه الرواية .

وقال القرطبي في تفسيره بعد ذكر هذا عن ابن عباس وسعيد بن جبير: وهذا غير صحيح عن ابن عباس وعن غيره فان مصاحف الاسلام كلها قد ثبت فيها حتى تستأنسوا وصح الاجماع فيها من لدن عثمان فهي التي لا يجوز خلافها .

واطلاق الخطأ والوهم على الكاتب في لفظ اجمع الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس وقد قال عز وجل « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »*

وقد روى هذا الخبر عن ابن عباس ابن جرير ولا يخلو اسناده من مدلس او مضعف ورواه الحاكم وصححه !! وتصحيح الحاكم غير معتبر عند أئمة الحديث وقد تعقبه الامام الذهبي في نحو مائة حديث موضوع أثبتها في كتابه المستدرك .

هذا عدا الضعاف والواهيات التي تملأ كتابه .

انظر كيف سمح المصنفون بخرافة من هذا القبيل المنكر ان تتداول على هذا النحو وكان الواجب ان تستبعد ابتداء وان يرفض رفضا باتا اي ذكر لها .

وهاك مثلا آخر لحفاوة المصنفين بروايات الآحاد مع انه كان يجب وفق مقتضيات فن التحديث ان ترفض شكلا ، لا ان تقبل ، ثم ترفض موضوعا .

فقد ذكر السيوطي في كتابه الاتقان ــ في صدد الحروف السبعة التي نزل بها القرآن ــ قال : روى ابو داود عن ابي بن كعب قلت : سميعا عليما، عزيزا حكيما ، ما لم تختم آية عذاب برحمة ، او رحمة بعذاب .

وعند احمد من حديث ابي هريرة انزل القرآن على سبعة احرف : عليما حكيما ، غفورا رحيما .

وعنده ايضا من حديث عمر بأن القرآن كله صواب ما لم تجعل مغفرة عذابا وعذابا مغفرة ، قال : واسانيدها جياد ..!!

أقول : وهذا كله كلام منكر ، وتخليط شديد ، ووصف هذه الاسانيد بأنها جياد ــ لو كان صدقا ــ ما دل على صحة هذه الاحاديث ..

فان الحديث الصحيح يشترط في متنه خلوه من الشذوذ والعلل القادحة، وان كان سنده قائما .

---

* فصلت ــ آية ٤٢

وهذه الروايات انتهت بمتون تخالف المقطوع به ، فكيف تقبـــل ، ثم تؤول ؟

او كيف يثبتها الحفاظ ثم يلتمسون لها التفاسير التي تصرفها عن ظاهرها؟

الحق انه كان يجب سد الاسماع عنها وطي الصحف دونها ، وتطهير تاريخنا الثقافي من ذلك اللغو العريض ..

ولكن علماءنا عفا الله عنهم تساهلوا في الانصات لها ، ثم انشغلوا حينا بتأويلها وحينا بتزييفها .. !!

والتساهل في سماع هذه المرويات هو الذي اعطى مادة الجدل والافتراء لعصابات المبشرين والمستشرقين ..

وهذا الذي فتح باب الشبه لقصار العقول ، او مغشوشي الضمائر ، ونحن وحدنا المسؤولون .

وقد يعتذر لمسلك الاقدمين بأن الطبيعة العقلية للاسلام ، والحرية الهائلة التي صاحبت مسيره هما سر هذا الاخذ والرد ، والقبول والرفض، وترك هذا الحشد الكثيف من المعقولات والمنقولات يموج ويتلاطم .. وهيهات ان يعكر وجه الحق لهذا كله او لشيء منه ، فان الاسوار التي تحيـــط بالقرآن من المناعة بحيث لا ينال منها وهم واهم .

وطمأنينة الاقدمين الى هذه المناعة هي التي جعلتهم لا يبالون باستقبال الشبهات وتدوين شتى المرويـــات .

ومع قيمة هذا الاعتذار فاني اود لو غربلنا تراثنا العلمي حتى ينقى من هذه الترهـــات .

ثبوت .. وثبوت !

لا يزعم النصارى ان الاناجيل الكنسية القائمة الآن وحي من الله الى عيسى بن مريم ، بل هم يقفون بها عند حدودها العتيدة ويرونها سيرا خاصة كتبها رجال معينون ، واودعوها ما لديهم من معارف ووصايا ، وتواريخ لحياة السيد المسيح ، ومن ثم ينسبون كل انجيل لكاتبه فحسب !!

واطلاق كلمة [انجيل] على هذه التواليف مجاز قد يوقع في اللبس ، اذ يحسب العامة ان هناك صلات بين تلك القصص المكتوبة ، وبين الانجيل الذي ثبت لدينا ان الله انزله على نبيه عيسى بن مريم ، وهو الكتاب المقدس الذي قلنا انه غير موجود الآن ، لانه — كما يبدو — ذهب مع الاضطهاد اليهودي الروماني القديم ، ذلك الاضطهاد الذي اودى برسالة عيسى، وانتهى بوفاته على نحو غريب .

والواقع المسلم به هو دليل ذلك الاستنتاج البين .

والا فأين يا ترى انجيل عيسى بن مريم ؟ ..

واذا اتضح ذلك ، يمكننا ان ننفى اية مقابلة بين القرآن الكريم ، وبين انجيل ما من هذه الاناجيل ، فلا موضع البتة لمقارنة بين وحي الهي منزل ، وبين كلام انساني مؤلف .

ذلك من ناحية [المتن] . اما من ناحية [السند] فلا موضع البتة للمقارنة بين ما تواتر نقله ، وتلقاه جمهور من العدول الموثقين عن جمهور مثله ، وبين اشياء يرويها افراد ، لو ان كل واحد منهم ثقة ما بلغ حديثه درجة اليقين الجازم .

ان مجال المقابلة يوجد بين هذا القرآن وبين الانجيل المنزل على

عيسى نفسه ، وهو انجيل لا نشك في انه حق ، لان الله عز وجل اخبرنا بذلك في كتابه الاخير ، فقال : « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور »(٢٩) ..

على ان ما لدى النصارى انفسهم من كتابات يومىء الى وجود هذا الانجيل المفتقد . قال الشيخ محمد ابو زهرة في كتابه عن [النصرانية] :

« هل هناك انجيل غيرها — يعني الاربعة المعروفة — بعد انجيل عيسى عليه السلام ؟ وهل في كتابات الباحثين من النصارى ما يدل على ثبوت هذا الانجيل ، وان كنا لا نجده ؟ .. »

ان في هذه الاناجيل عبارات تذكر كلمة انجيل ، او بشارة — وهي ترجمة لكلمة انجيل باليونانية — مضافة احيانا الى المسيح على انه ابن الله ؛ واحيانا الى الله ، واحيانا الى ملكوت الله !!

فنرى مثلا في انجيل « متى » في الاصحاح الرابع منه ما نصه : « وكان يسوع يطوف كل الجليل ، يعلمفي مجامعهم ، ويكرز ببشارة الملكوت ، ويشفي كل مريض ، وكل ضعف في الشعب .. » .

وبشارة الملكوت هي ترجمة كلمة انجيل باليونانية ..

ونرى في انجيل مرقس في الاصحاح الاول منه : « وبعد ما اسلم يوحنا جاء يسوع الى الجليل يكرز(٣٠) ببشارة ملكوت الله ، ويقول : قد كمل الزمان ، واقترب ملكوت الله ، فتوبوا وآمنوا بالانجيل .. » .

وجاء في رسالة بولس الى اهل رومية في الاصحاح الاول منها : « اولا اشكر الهي يسوع المسيح من جهة جميعكم . ان ايمانكم ينادى به في كل

---

(٢٩) المائدة : ٤٦

(٣٠) في المحيط ، كرز : استخفى والتجا ومال .

العالم ، فان الله الذي اعبده بروحي في انجيل ابنه شاهد لي . كيف بلا انقطاع اذكركم .. » .

ويجيء في رسالته الاولى الى اهل كورنثوس في اصحاحها التاسع : « بصرت للضعفاء كضعيف لاربح الضعفاء ، صرت للكل كل شيء لاخلص على كل حال قويا ، وهذا انا افعله لاجل الانجيل لاكون شريكا فيه ..» .

ففي هذا كله ، نجد كلمة انجيل او كلمة بشارة — وهي ترجمة كلمة انجيل باليونانية — مضافة الى ملكوت الله ، كما في انجيل [متى] و [مرقس] وانجيل الابن كما في رسالة [بولس] الى اهل رومية ، وكلمة الانجيل من غير اضافة كما في انجيل مرقس ، ورسالة بولس الى اهل كورنثوس الاولى ..

ولا شك ان الانجيل المذكور في كل هذا ليس واحدا من هذه الاناجيل لانها لا تضاف الا الى اصحابها باتفاق النصارى ، ولان المسيح قد وعظ بهذا الانجيل ، كما جاء في عبارة [متى] التي نقلناها ولم يكن واحد من هذه الاناجيل قد وجد في عهده بالاتفاق ، وليس من المعقول ان يعظ بأقوال تلاميذه، وهم بعد لا يزالون في دور التعلم ، ولان هذا الانجيل قد ذكر في هذه الاناجيل على انه كان قائما في عهد عيسى عليه السلام، ولانه ذكر من غير نسبة كما في انجيل [مرقس] ، ورسالة [بولس] الاولى الى اهل [كورنثوس] ، وليس واحد من هذه الاربعة تنصرف اليه كلمة انجيل من غير نسبته الى صاحبه ، ولانه ذكر في رسالة بولس الى اهل رومية منسوبا الى المسيح الابن ، وليس واحد من هذه الاناجيل يستحق هذا الاسم .

لهذا كله نقول : ليس هذا الانجيل واحدا منها كما تقضي بذلك طبيعة السياق وكما يقضي بذلك العقل . واذا كان الامر كذلك فهل لنا ان نفهم ان هناك انجيلا اصيلا نزل على عيسى عليه السلام ، وكرز به على حد تعبيرهم ووعظ .. ويعتبر الاصل لهذه الديانة ؟ ..

نقول : والمسلم في غير احتياج الى هذا الاستدلال كي يصدق بانجيل عيسى عليه السلام ، فنحن نؤمن بذلك الكتاب ، وان لم نقف له على اثر .

وقد يكون المسيحي اولى بامعان النظر في هذا الاستعراض التاريخي، ليعرف الحقيقة كاملة .

وما يقال في الانجيل الموحى به ، يقال كذلك في التوراة ، على اختلاف في التفصيل والتمثيل ، فان الامر منته حتما بالنتيجة السابقة ..

والواقع انه ليس في العالم الآن كتاب تصح نسبته الى الله ، وتتقدم الدعوى به محفوفة بآلاف الادلة ، وتسطع حقيقته في الاذهان سطوع الضحوة الكبرى ، في الابصار .. الا هذا القرآن الكريم ..

انه وحده صوت السماء ، ووديعة الملأ الاعلى ، وكلام الله الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد »(٣١) ..

لكن يبقى بعد ذلك ان مؤلفي الاناجيل ، رووا فيها تعاليم شتى نطق بها نبي الله ، وكلام الانبياء له قيمته . واذا كانت هذه المرويات لا تقارن بالقرآن مثلا ، فلم لا تقارن بالاحاديث النبوية ؟ وهذا تساؤل حقيق بالاجابة ..

فان هناك وجه شبه بين الاناجيل ، وبين حديث الآحاد عندنا ، اعني الاحاديث « المرسلة » و « المعضلة » و « المنقطعة » و « الموضوعة »..

وقد يكون هناك شبه بين بعض تعاليم عيسى ، وبين ما صح من كلام محمد ، عليهما الصلاة والسلام ..

والامر يحتاج الى فضل ايضاح ..

ذلك ان علماء الاسلام حرروا ما ينسب لنبيهم على ضوء قواعد لا يجد العقل منفذا لخدشها ، فنقلة الكلام ، يجب ان يكونوا سلسلة موصولة الحلقات من الرجال العدول الثقات ، فاذا انخرمت السلسلة في موضع ، او تطرق الطعن الى احد الرواة ، لم يكن الحديث موضع تسليم .

---

(٣١) فصلت .

واذا اتصلت السلسلة ، وسلمت اقدار الرواة ، نظر بعد ذلك الى الكلام نفسه ، فقد تكون به علل قادحة ، يستبينها النقدة على طول التأمل ، وقد يكون فيه شذوذ عما استراح اليه العقل والنقل من طرق اخرى ، فان وجد شيء من ذلك رفض الحديث ..

ولا نظن ان هناك دقة في وزن الكلام ، وتصحيح نسبته ، وتقدير قيمته ، فوق ما وصل اليه علماء المسلمين في هذا المجال .

ولنضرب طائفة من الامثلة الكاشفة المقاربة لترسخ في الاذهان هذه الحقائق . روى احمد بن حنبل بسنده عن الحسن البصري ، عن ابي هريرة ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من استمع الى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة » .

هذا الحديث تضمن معنى جميلا . بيد ان العلماء يحكمون عليه بالضعف مع ذلك ! ولم ؟ لان الجمهور يرى ان الحسن البصري لم يسمع من ابي هريرة .. واذن فالسلسلة منقطعة في احد المواضع ، وانقطاع السلسلة يزري بالرواية في حديث آحاد ، ويجعل العلماء في حل من رده ..

فماذا تقول اذا علمت ان كاتب انجيل لوقا ، لم ير عيسى عليه السلام، ولم يسمع منه ؟ ان انقطاع السلسلة بين لوقا وعيسى ، يحل العلماء من قبول مؤلفه هذا دون حرج .

وذلك كله على فرض سلامة المتن ، وسلامة بقية الرواة ..

وروى ابن ماجه عن خالد بن عمرو القرشي الاموي السعيدي عن سفيان الثوري عن ابي حازم عن سهل بن سعد الساعدي ، قال : جاء رجل الى النبي فقال : يا رسول اللهدلني على عمل اذا عملته احبني الله ، واحبني الناس ، فقال : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في ايدي الناس يحبك الناس » .

قال العلماء : الحديث ضعيف — وان لطف معناه — لم ؟ لان خالدا الراوي الاول ، رجل متهم متروك الحديث !!

فماذا تكون عليه الحال اذا كان [بولس] الراوية الكبير في النصرانية ، رجلا متهما ؟ . .

واذا كان [متى] نفسه قد التحق بوظيفة محصل ضرائب للرومان الخظلمة ؟ . .

هذه الاوصاف والاعمال ، تجعل صاحبها في نظر النقاد المسلمين غير مأمون الرواية . .

ثم لنفرض جدلا ان الاسانيد فوق الشبه وان المتون لا غبار عليها ، وان الاحاديث بعد ذلك صحيحة ، لا يسوغ ردها ، فما نتيجة هذا الفرض ؟

ان الاحاديث الصحيحة لا تفيد اكثر من الظن العلمي . . واصول الاديان من عقائد واحكام ، وقواعد وشعائر ، لا تقبل الا من مصدر يقيني ، اي من مصدر متواتر مكين .

والمسلمون لا يعرفون هذه المنزلة للقرآن الكريم ، لانه جملة وتفصيلا ، متواتر بخلاف السنة .

ان التراث الادبي في الاناجيل الكنسية ، اذا قيس بما يشابهه عندنا ، لم يحرز تقديرا يذكر فاننا نحن المسلمين بلغنا في ضبط النقول مدى اربى على الغاية ، وانقطعت دونه الظنون .

ولنعد الى الافتراض المجرد هب ان ذلك التراث كله اشبه حديثا صحيحا من الاحاديث التي تنسب لمحمد صلى الله عليه وسلم ؟ ان المسلم قد تقوم في نفسه دلائل شتى تجعله يؤخر هذا الحديث امام تلك الدلائل ، بل قد تجعله يرد ذلك الحديث ، ومع ذلك لا يوصم بكفر او فسوق ، وان وصف بالخطأ .

ذلك ان اركان الدين لا تستمد من اخبار الآحاد وان صحت فكيف تكون الحال اذا كانت دعائم النصرانية لا تقوم الا على اخبار الآحاد ؟

واي آحاد ؟ آحاد في اسلوب روايتهم متسع لترويج الشائعات ،

وتصديق الخرافات .. وفي تسلسل الرواية عنهم فجوات وفجوات ! ..

خذ مثلا انجيل [متى] . ان الرجل كتب سيرة عيسى عليه السلام — التي تسمى خطأ ، او مجازا ، انجيل [متى] بالعبرانية او السريانية والنسخة المكتوبة بهذه اللغة او تلك لا تعرف ، وانما توجد نسخة باليونانية ، هي اقدم ما عرف من ذلك الانجيل .

اين الاصل الاول ؟ من الذي ترجمه ؟ متى كتب الاصل ؟ ، ومتى تمت الترجمة ؟ ..

ليست هناك اجابات على هذه الاسئلة .. ! الباحث الحر في حل من حجب ثقته عن مثل هذا الكتاب ، من ناحية سنده التاريخي ، فلننتقل الى المتن نفسه ، بعدما عرفنا قيمة السند ..

قال الاستاذ الشيخ محمد ابو زهرة : « قد اشتمل بعض هذه الكتب على اخبار لو صحت لكانت معلومة مشهورة في التاريخ ، يعرفها الخاص والعام ، ولدونتها كتب التاريخ على انها حوادث مفردة عجيبة في الدهر ، ولكن لم يرد لها ذكر في التاريخ ، ولم يعرف الناس امرها الا من تلك الكتب .

هذا [متى] يقول عند صلب المسيح وقيامته : « فصرخ يسوع بصوت عظيم ، واسلم الروح ، واذا حجاب الهيكل قد انشق الى اثنين من فوق الى اسفل ، والارض تزلزلت ، والصخور تشققت ، والقبور تفتحت ، وقام كثير من اجساد القديسين الراقدين ، وخرجوا من القبور بعد قيامته ، ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين . واما قائد المائة والذين معه يحرسون يسوع فلما رأوا الزلزلة وما كان خافوا جدا وقالوا : حقا كان هذا ابن الله » .

وهذه حادثة عظيمة لو صحت لدونها التاريخ العام الذي لم يشر الى المسيح بكلمة .

ولو صحت ايضا لآمن الرومان واليهود ، او آمن نفر منهم .

الصخور تتشقق ، والارض تتزلزل ، والاموات ينشرون ، ويسيرون

على الارض ، ويراهم الكثيرون ، ويبقى بعد ذلك مساغ لانكار ؟ ومع هذا لم ترد اخبار بايمان احد من اليهود على اثر تلك البينات الباهرات .

ولقد جزم العلامة المسيحي نورتن بكذب هذه الحكاية ، وقال في تكذيبها: « هذه الحكاية كاذبة ، والغالب ان امثال هذه الحكايات كانت رائجة في اليهود بعد خراب اورشليم ، فلعل احدا كتب هذه الحكاية في حاشية النسخة العبرانية وادخلها الكتاب في المتن ، وهذا المتن وقع في يد المترجم فترجمها كما وجدها » .

ونقول : لعل كثيرا مما في المتن اصله في الحاشية ثم نقل خطأ في المتن .

واذا كان الامر كذلك ، فكيف يكون هذا الكتاب واشباهه مصدرا لاعتقاد جازم ، وايمان بدين ؟ وكيف يزعم زاعم ان هذا الكتاب بحواشيه الدخيلة ، غير المعلومة من متنه الاصيل ، هو بالهام من الله العلي القدير ؟

ولكن في العالم عقول تقبل ذلك ، بيد انه من الانصاف لهذه العقول ، ان نقول : ان اصحابها يقيمون عليها غواشي تمنع نورها ان يكشف عن موضع الضعف في هذا الكلام ، فهي تقبله على غير بينة ولا سلطان .

ومن الانصاف ان نذكر ضميمة اخرى الى جانب هذه الحقيقة ، وهي ان في صحائف العهد القديم والجديد آثارا حسنة ، وعظات صادقة ، وامثالا حكيمة . .

ولن تعدم في ركام المرويات التي اجتلبها الرواة من كل مكان كلاما عليه طابع الوحي ، تطل من خلاله ارواح موسى ، وعيسى وغيرهما من انبياء بني اسرائيل .

ولا غرو ، فالمأخود على القوم انهم لبسوا حقا بباطل ، وشركا بتوحيد ، وهوى الانفس بأحكام الله ، فكان هذا الخلط سبب ما عراهم من انحراف، وما عرا العالم كله — معهم — من شقوة وشرود . .

الاعجاز

الاعجاز النفسي

احتوى القرآن على شرائع الاسلام واصول دعوته .

لكن هذه الشرائع والاصول لا تستغرق جزءا كبيرا منه ، فان الاسلام دين يسير الرسالة ، محدود التكاليف ، وانما كثرت السور واستبحرت الآيات نكي يمكن عرض الحقائق الدينية في اسلوب عامر بالاقناع ، فياض بالادلة !

نعم ، تستطيع حصر احكام القرآن ، وزبدة عقائده وتعاليمه في بضع صفحات . وبضع صفحات ليست شيئا هينا ، انها تتسع لحشد كبير من المعارف الثمينة .

بيد ان الوحي الالهي ليس مجموعة من العلوم رصت في كتاب ، ثم قدمت للناس . ان عماد هذا الوحي ـ بعد تقرير الحق الذي جاء به ـ هو : كيف يغرس هذا الحق في النفوس، وكيف تفتح اقطارها له ، وكيف تبقى عليه وان تعرضت للفتن ، وكيف يبقى فيها وان زاحمه الباطل وضيق عليه الخناق بصنوف المحرجات !..

ان وحدانية الله جل جلاله ام العقائد الاسلامية ، ومبدأ التوحيد لا يحتاج في بيانه الى كراسات او مجلدات . بل كلمة التوحيد تكتب في سطر، وتنطق في لحظات ، فهل كذلك الامر في اشراب القلوب حقيقة التوحيد ؟ وتتبع مسالك الانسان لنفي الشرك عنها ، والزامها الصراط المستقيم ؟ وسرد تاريخ الامم الاولى ، وكيف اجتالتها الشياطين عن الفطرة ، فاتخذت من دون الله اوثانا ؟ ..

وكيف لقيت المصير الاسود الذي يجب ان تتعظ به الاجيال الجديدة بعد بوار القرون السابقة ؟

الامر هنا يحتاج الى افاضة واستطراد حتى يستطاع التغلب على طبيعة الانسان المعاندة ، واغلاق كل منفذ يمكن ان تهرب منه .

ولذلك يقول الله عز وجل :

« ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ا وكان الانسان اكثر شيء جدلا»(٣٢) .

قد تجد في القرآن حقيقة علمية مفردة ، ولكن هذه الحقيقة تظهر في الف ثوب ، وتتوزع تحت عناوين شتى ، كما تذوق السكر في عشرات من الطعوم والفواكه ، وهذا التكرار مقصود ، وان لم تزد به الحقيقة العلمية في مفهومها .

ذلك ان الغرض ليس تقرير الحقيقة فقط ، بل بناء الافكار والمشاعر عليها ، والتقاط آخر ما تختلقه اللجاجة من شبهات وتعلات ، ثم الكر عليها بالحجج الدامغة حتى تبقى النفس وليس امامها مفر من الخضوع للحق واستكانه لله .

وعندي ان قدرا كبيرا من اعجاز القرآن الكريم يرجع الى هذا ..

فما اظن امرءا سليم الفكر والضمير يتلو القرآن او يستمع اليه ثم يزعم انه لم يتأثر به ..

قد تقول : ولم يتأثر به ؟ .. والجواب انه ما من هاجس يعرض للنفس الانسانية — من ناحية الحقائق الدينية الا ويعرض القرآن له بالهداية وسداد التوجيه .

ما اكثر ما يفر المرء من نفسه ، وما اكثر الذين يمضون في سبل الحياة هائمين على وجوههم ، ما تمسكهم بالدنيا الا ضرورات المادة فحسب .

---

(٣٢) الكهف : ٥٤

ان القرآن الكريم بأسلوبه الفريد يرد الصواب الى اولئك جميعا ، وكأنه عرف ضائقة كل ذي ضيق ، وزلة كل ذي زلل . ثم تكفل بازاحتها كلها ، كما يعرف الراعي اين تاهت خرافه . فهو يجمعها من هنا وهناك ، لا يغيب عن بصره ولا عن عطفه واحد منها .

وذاك سر التعميم في قول الله عز وجل :

« ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل »(٣٣) .

حتى الذين يكذبون بالقرآن ، ويرفضون الاعتراف بأنه من عند الله .

انهم يقفون منه مثلما يقف الماجن امام أب ثاكل ، حتى لا ينخلع من مجونه الغالب عليه ، ولكنه يؤخذ فترة ما بصدق العاطفة الباكية .

او مثلما يقف الخلي امام خطيب يهدد بالصدق ، ويحدث العميان عن اليقين الذي يرى ولا يرون .

انه قد يرجع مستهزئا ، ولكنه يرجع بغير النفس التي بها جاء ..

والمنكرون من هذا النوع لا يطعنون في التأثير النفساني للقرآن الكريم كما ان العميان لا يطعنون في قيمة الاشعة ، ولذا يقول عز وجل :

« الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله : ذلك هدي الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد »(٣٤) .

* * *

---

(٣٣) الكهف : ٥٣

(٣٤) الزمر : ٢٣

وتصريف الامثال للناس ترديدهم بين صنوف المعاني الرائعة ..

قال العلماء في شرح الآية : [ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ..] رددنا وكررنا من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه ، او سقنا لهم وجوه العبر والاحكام والوعد والوعيد ، والقصص وغير ذلك .

والمقصود ان القرآن يملك على الانسان بالوسيلة الوحيدة التي تقهر تفوقه في الجدل ، اي بتقديم الدليل المفحم لكل شبهة ، وتسليط البرهان القاهر على كل حجة .

فالنكوص عن الايمان بعد قراءة القرآن يكون كفرا عن تجاهل لا عن جهل .. وعن تقصير لا عن قصـــور ..

والجدل آفة نفسية وعقلية معا ، والنشاط الذهني للمجادل يمده حراك نفسي خفي قلما يهدأ بسهولة .

وجماهير البشر لديها من اسباب الجدل ما يفوق الحصر ، ذلك انهم يرتبطون بما الفوا انفسهم عليه من اديان وآراء ومذاهب ارتباطا شديدا ، ويصعب عليهم الاحساس بأنهم وآباءهم كانوا في ضلال ـــ مثلا ـــ فاذا جاءت رسالة عامة تمزق الغشاوات عن العيون ، وتكشف للناس ما لم يكونوا يعرفون . فلا تستغربن ما تلقى من الانكار والتوقف ، او التكذيب والمعارضة .

واسلوب القرآن في استلال الجفوة من النفس ، والقاء الصواب في الفكر ، اوفى على الغاية في هذا المضمار .

ذلك انه لون حديثه للسامعين تلوينا يمزج بين ايقاظ العقل والضمير معا، ثم تابع سوقه متابعة ان أفلت المرء منها اولا لم يفلت آخرا .

كما يصاب الهدف حتما على دقة المرمى ، وموالاة التصويب..

وذلك هو تصريف الامثال للناس . انه احاطة الانسان بسلسلة من المغريات المنوعة لا معدي له من الركون الى احداها .

او معالجة القلوب المغلقة بمفاتيح شتى ، لا بد ان يستسلم القفل عند واحد منهـــا .

وتراكيب القرآن ـــ التي تنتهي حتما بهذه النتيجة ـــ تستحق التأمل الطويل . ولسنا هنا بصدد الكلام عن بلاغتها ، بل بصدد البحث عن المعاني التي تألفت منها ، فكان من اجتماعها هذا الاثر الساحر .

وهاك مثلا من مئات الامثلة في هذا الشأن ، ترى فيه حديثا عن مظاهر الكون ، ثم ايماء الى مشاهد القيامة ثم تحذيرا للانسان من الغفلة ، ثم دفعا قويا الى الطريق السوي ، لا بد فيه من الجمع بين صلاح العقيدة ، وسلامة الحق ، وحسن العبادة ، ودقة المعاملة للناس أجمعين .

« كلا والقمر . والليل اذ ادبر . والصبح اذا اسفر . انها لاحدى الكبر . نذيرا للبشر . لمن شاء منكم ان يتقدم او يتأخر . كل نفس بما كسبت رهينة . الا اصحاب اليمين في جنات يتساءلون . عن المجرمين . ما سلككم في سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مـــع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى اتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين»(٣٥) .

انني اقرأ هذه الآيات فأحس عملها القوي في ارجاء نفسي ، غير انني لا ادري سر هذا العمل القوي !

الكلمات ومعانيها من جنس ما نعرف ، اما آثارها فلسنا نعرف مأتاها، وان تشبثت بأنفسنا الى ابعد الحدود .

والشيء قد يكون في احدى حالاته مألوفا لا يثير انتباها ، فاذا اظهر هذا الشيء نفسه في اوضاع اخرى اكتنفته معان شتى ! ..

الا ترى الزخرفة في فن الرسم تتكون من [وحدة] معينة ؟ لو رأيت

---

(٣٥) المدثر : ٣٢ ـــ ٤٨

صورتها مفردة ما لفتت نظرك ، فاذا كررها الرسام بطرق مختلفة برزت معالم الجمال في انواع من الزخارف تسحر الالباب .

ثم ان الفك الشيء قد يخفي ما فيه من اسرار ، ويصرفك عن اكتشافها.

وكثيرا ما تتلو آيات القرآن مثلما تتصفح آلاف الوجوه في الطريق ، ملامح تراها قد تكون دميمة ، وقد تكون وسيمة تمر اشكالها بالعين ، فما تثبت على احدها الا قليلا وفي ذهول .

لان المرء مشغول بشأنه الخاص عن دراسة القدرة العليا في نسج هذه العيون ، وغرس هذه الرؤوس ، وصوغ تلك الشفاه ، واحكام ما تنفرج عنه من اسنان ، وما تؤدي اليه من اجهزة دوارة لا تقف لحظة ..

اننا نقرأ القرآن فيحجبنا ابتداء عن رؤية اعجازه ، انه كلام من جنس ما نعرف ، وحروف من جنس ما ننطق ، فنمضي في القراءة دون حس كامل بالحقيقة الكبيرة .

الا ان طبيعة هذا القرآن لا تلبث ان تقهر برودة الالف ، وطول المعرفة، فاذا كتاب تتعرى امامه النفوس ، وتنسلخ من تكلفها وتصنعها وتنزعج من ذهولها وركودها ، وتجد نفسها امام الله جل شأنه يحيط بها ويناقشها ويعلمها ويؤدبها ، فما تستطيع امام صوت الحق المستعلن العميق الا ان تخشع وتصيخ .

* * *

وكما قهر القرآن نوازع الجدل في الانسان وسكن بحاجته ، تغلب على مشاعر الملل فيه ، وامده بنشاط لا ينفد .

والجدل غير الملل ، هذا تحرك ذهني قد يجسم الاوهام ، ويحولها الى حقائق ، وذاك موات عاطفي قد يجمد المشاعر ، فما تكاد تتأثر بأخطر الحقائق .

وكثير من الناس يصلون في حياتهم العادية الى هذه المنزلة من الركود العاطفي ، فتجد لديهم برودا غريبا بازاء المثيرات العاصفة ، لا عن ثبات وجلادة ، بل عن موت قلوبهم ، وشلل حواسهم ..

ونحن نعرف هذه الحالة في طباع الناس ، ونحاول علاجها بألوان المثيرات التي لا تخطر ببال .

خذ مثلا عاطفة الحب الجنسي . ان هذه العاطفة مع ارتباطها بأعتى الغرائز الانسانية لم تترك للون واحد من المنشطات المادية ، بل تسابق الشعراء والمغنون والملحنون والموسيقيون لمداعبة النفس الانسانية بألوان من الغناء واللحن والعزف تفوق الحصر .

فمن لم تعجبه اغنية هاجته اخرى ، ومن استغلق فؤاده امام لحن انفتح امام لحن آخر ، ومن طال به الالف فهدا اخترعت له فنون اخرى تثير الهامد من احساسه ، وهكذا .

وفي اغلب الآفاق المادية والمعنوية يحسب للملل الانسان وكلاله حساب دقيق ، وتؤخذ الحيطة له كي لا يقف بالمرء في بدايات الطريق !..

والقرآن الكريم في تحدثه للنفس الانسانية حارب هذا الملل ، واقصاه عنها اقصاء ، وعمل على تجديد حياتها بين الحين والحين حتى انه ليمكنها ان تستقبل في كل يوم ميلادا جديدا : « وكذلك انزلناه قرآنا عربيا وصرفنا ما فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا »(٣٦) ..

واحداث الذكر هو تجديد معنويات الانسان كلما صدئت على طول التعب ومس الذهول ..

واسلوب القرآن في هذا المجال يربى على كل تقدير .

---

(٣٦) طه : ١١٣

انه يخترق اسوار الغفلة ويصل الى صميم القلب ، ثم يقفه راغبا او راهبا بازاء ما يريد .

وتوجد سورة بأكملها حافلة بهذه الاثارات المحركة لوعي الانسان ، المجددة لقواه ومشاعره كلما استرخت وفترت .

وقد تقوم سور اخرى على طراز من المعاني التوجيهية كالتشريعات والاحكام لا صلة لها بانفعالات القلوب ، وذلك لا يغير من الحقيقة التي شرحناها . فان شؤون المعاملات في القرآن الكريم تستمد قداستها وصدق التأثر بها من مقررات العقيدة والتقوى التي غرستها سائر السور والآيات.

والشعور بالرهبة والرقة يغمرك وانت تستمع الى قصص الاولين والآخرين تروى بلسان الحق ، ثم يتبعها فيض من المواعظ والحكم والمغازي والعبر تقشعر منه الجلود .

وأقرب الامثلة لذلك سور الاعراف وهود والشعراء والقصص .. الخ.

والهدف الاهم من وراء هذا السرد المتكرر ، ليس بيان الحق فقط ، بل هو — الى جانب ذلك — تعميق مجراه في القلوب تعميقا ينفي ما طبع عليه الانسان من جدل وملل ..

الاعجاز العلمي

لا سبيل الى معرفة الله عن طريق التأمل في ذاته ، فان الوسائل الى ذلك معدومة .. وانما طريق التعرف على الله يبدأ من التأمل في خلقه .

وعن طريق التفكير السليم في الحياة والاحياء ، واستخلاص المعارف القيمة الخارجة من الارض او النازلة من السماء ، يمكننا ان ندرك طرفا من عظمة الخالق الاعلى ، وما ينبغي ان يوصف به من كمال ..!

كيف يعرف روعة القدرة واحاطة العلم ، ودقة الحكمة ، وجلال الموجد الكبير ، امرؤ مغلق الذهن ، مكفوف البصيرة ؟ يمشي على الارض كما تمشي السائمة ، لا يستبين من صفحات العالم الا ما يستبينه الدواب من قوانين الكهرباء ، او اسرار الجاذبية ، او معالم الجمال ، او طبائع العمران ؟؟

انك تنظر الى الآلة الدوارة ، ذات التروس المتراكبة ، والاذرع المتشابكة تتحرك كما اريد لها بسرعة ونظام ، وتؤدي العمل المطلوب منها برتابة واحكام ، فما تملك نفسك من ان تشهد بحدة الذكاء للذي اخترعها ، ومهارة اليد التي قدرتها ، ثم سيرتها .

ونحن كذلك ننظر الى ما بين ايدينا وما خلفنا ، وما فوقنا وما تحتنا ، فما نملك انفسنا من الشهادة لله — الذي ابرز ذلك كله من العدم — بأنه خلق فسوى ، وقدر فهدى .

وكلما ازدادت معرفتنا بمادة الوجود وسره ، وانكشفت لنا آياته وخباياه احسسنا ان عظمة المبدع الماجد فوق ما يطيقه وعينا المحدود ، وان التحية التي تقدم لهذا الاله الجليل هي الاعتراف بأن مظاهر وجوده بهرت كما يبهر السنا المتألق عيون الناظرين !

ان درسا في الطبيعة والكيمياء هو صلاة خاشعة .

وان سياحة في علم الافلاك هي تسبيح وتحميد .

وان جولة في الحقول الناضرة ، والحدائق الزاهرة ، او جولة مثلها في المصانع الطافحة بالحركة ، المائجة بالوقود والانتاج ، هي صلة حسنة بالله، ذلك لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيـــد ..

وقد كنت اهش لحصص العلوم الكونية يوم كنا نتلقى دروسها في مرحلة التعليم الثـــانوي .

وكانت حصيلتنا من هذه الدراسات حسنة ، او هي على الاقل مهـــاد يستطيع طالب المزيد ان يبني عليه ..

ثم عرفت ان لجنة لتعديل المناهج في الجامع الازهر طوحت بنصـــف هذه الدراسات ، وردت اكثر الباقي الى مرحلة التعليم الابتـــدائي .

وحجتها فسح المجال لعلوم اللغة والشريعة .

وهذا عمل طائش ، والحجة فيه داحضة . فان العلوم الكونية من صميم المعارف الاسلامية ، بل هي اولى بالله وبدينه من اكثر العلوم المنسوبـــة الى الاسلام الآن .

والحقيقة ان هذا التصرف عودة الى المعصية التي ارتكبها المفكرون الاسلاميون عندما ذهلوا عن البحث في المادة ، وانشغلوا بالبحث فيما وراءها، فرجعوا بعد عدة قرون من هذا الشطط وايديهم صفر .

فلا هم الذين فهموا المادة وانتفعوا بعلومها المتاحة .

ولا هم الذين اخترقوا اسوار الغيوب ، وعرفوا كنه ما وراء الطبيعة .

بل ليت ايديهم عادت صفرا ، لقد عادت وملؤها الوهم من فلسفـــات النظر الفاشل ، والتفكير المريض ..

ان كل توهين للدراسات هو مشاقة واضحة لآيات النظر والتدبر الواردة في القرآن الكريم — وما اكثرها — .

وما نغالي اذا قلنا : انها حكم بالاعدام على هذه الآيات ، ثم اقامة مجتمع ساذج ، او مستغفل ، او بليد بين ارض وسماء حافلين بالنور والقوة.

ان الله الذي خلق العقل نوه به واشار بقيمته .

وان الله الذي انزل الاسلام ، واتم به النعمة ، جعل ملاك فقهه وقيام امره على ذلك العقل .

ان الله الذي ابدع هذا العالم لم يلق مفاتيح ايداعه للبله والحمقى ، وانما القاها للعالمين الاذكياء .

ولم يتح تسخيرها للمفرطين العاجزين ، وانما اتاحها لاولي العزم الاقوياء . . !

* * *

والتطابق بين الكون الممهد ، وبين العقل الواعي كالتطابق بين الحق وغطائه . .

فاذا لم يستفق العقل ويؤد رسالته ، انفصمت العلائق بينه وبين هذا العالم ، وبالتالي وهت صلته بالله ، وانحسرت دون مداها .

فمن اين تتأتى معرفة الله على وجه مستكمل جميل الا عن طريق امعان النظر في ملكوت الله ، ومطالعة روائعه بين الحين والحين ؟؟ . .

واذا كان ذلك طريق ابتداء المعرفة ، فهو كذلك طريق مضاعفتها .

ولا يصدنك عن هذا الحق ان هناك علماء بالكون يجهلون ربهم ، فان اسباب جهلهم او جحدهم لا تنبعث من هذه الدراسات .

واذا وجدنا من يقرأ الكتاب العزيز ويكفر به ، فليس كفرانه آتيا من قبل قراءته ، وما يجرؤ مسلم على تحريم القراءة ، لان بعض المعلولين لـم يحسن الافادة منها .

كذلك لا يقبل من احد ابدا ان يغض من شأن الدراسات الكونية ، لانها لم تهد بعض الملحدين الى رب العالمين .

وليس ثمة تفاوت بين العلم والدين ، فان الله الحق هو مصدر الاثنين . واذا لوحظ ان هناك اختلافا فليس بين علم ودين ، بل بين دين وجهل اخذ سمة العلم ، او بين علم ولغو لبس سمة الدين .

وسترى ان القرآن الكريم مستقيم كل الاستقامة مع كل الكشوف التي يميط العلم عنها الستار ، وذلك لا ريب من دلائل صدقه وآيات اعجازه.

فان راكب الناقة ابن الصحراء ــ الذي لم يعمل اللجج يومـا او يكابد الانواء ــ حين يجيء على لسانه وصف علمي دقيق للبحر والجو ، نجزم بأن هذا الوصف ليس من عنده ، بل من عند عالم الغيب والشهادة .

هب ان فلاحا من اغمار الصعيد كتب وصفا لرحلة جوية بين شاطىء المحيطين ، ذكر فيها انباء لا تعرفها الا ادق المراصد ، واحوالا ما يتبينها الا اذكى الطيارين .

أتحسب احدا يصدق بأنه قال ذلك من عند نفسه ؟؟

وقبل ان نذكر نماذج للرد المحكم الذي افرغ القرآن فيه اوصـاف الكون ، ومشاهد الطبيعة ، وقوى العالم ، نحب ان نذكر طبيعة الصلة بين العلم والدين ، او بين آيات الله في كتابه الكريم وآياته في هذا الكون العظيم .. وذلك نقلا عن كتاب « سنن الله الكونية »(٣٧) للدكتور العالم محمد احمد الغمراوي ..

---

(٣٧) لم اجد هذا المؤلف النفيس في المكتبات ، وكنت حريصا على اقتنائه ، فاضطررت الى استعارته من دار الكتب ، وانه لمن المحزن ان يزهد الناشرون الا في اخراج التافه بـل السام من الغذاء العقلي .. اما مراجع العلم النافع فهي تستخفي رويدا رويدا . حسب قراء العربية ان يقدم لهم المجون والفجور .

قال بعد شرح للمسالك التي يتأدى بها العلم الى نتائجه « رأيت مثلا من طريقة العلم في تعرف اسرار الفطرة ، والاهتداء الى سنن الله في الكـــون ، وتبينت كيف ان هذه الطريقة تضمن الوصول الى الحق في القريب او البعيد ، وان استعانت على ذلك بفرض الفروض » .

لكن لا خوف قط على الحقيقة من هذه الفروض ما دام العلم يطبـــــق فروضه على الواقع ، ويمحصها بالتجربة والاختبار .

فهذه الطريقة في الواقع هي طريقة العلم في الاجتهاد ، وبينها وبين طريقة اجتهاد المجتهدين في الدين وجه شبه مهم هو : ان رجال العلـــم يستوحون الحقيقة من صنع الله ، ورجال الدين يستوحون الحقيقة من كـــلام الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم .

فكل في الحقيقة مرجعه الى الله ، وان لم يصل رجال العلم بعد الى الله .

وكل في حكم الدين نفسه مرجعه الى الله ، اذ ان هذه الحقائق الطبيعية التي يكشف عنها العلم ببحوثه ان هي الا نوع من كلمات الله ، او هي كلمات الله الواقعة النافذة ، كما ان آيات القرآن هي كلمات الله الصادقة المنزلة .

ولقد سمى القرآن حقائق اسرار الخلق كلمات لله في مثل قوله تعالى : « ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله »(٣٨) .

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمـــات ربي ولو جئنا بمثله مددا »(٣٩) .

---

(٣٨) لقمان : ٢٧ (٣٩) الكهف : ١٠٩

وكلمات الله في هاتين الآيتين الكريمتين لا يمكن ان تكون كلماته المنزلة على رسله ، لان كلماته سبحانه في كتبه المنزلة محصورة محدودة في حين ان كلماته المشار اليها في هاتين الآيتين لا حصر لها ولا نهاية .

فلا بد ان تكون هي كلماته النافذة في خلقه ، والتي يبدو اثرها متجسما فيما نشاهد من الحوادث ، وفيما يكشف العلم من اسرار الكون .

فالاسلام متسع للعلم كله : حقائقه وفروضه ، والمجتهد مثاب اخطأ ام اصاب ، ما دام يريد وجه الحق ، وان كان العلم لا يعرف الى الآن : ان سبيل الحق من سبيل الله .

* * *

وهذا الكلام يحتاج الى امثلة تشرح غوامضه وتكشف خوافيه .

ما مظهر الوفاق بين آيات القرآن واسرار الكون التي اطلعنا العلم عليها في هذا الزمان ؟

واين مصداق ما تلاه محمد صلى الله عليه وسلم على الناس منذ اربعة عشر قرنا ، فكان سبقه به دليلا على انه لا ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى ؟

لقد ذكر الدكتور العالم امثلة شتى تلمحها وهو يصف بدقة حقائق الطبيعة ، ثم يسوق بعدها الآيات القرآنية فاذا هي منطوية على هذه الاوصاف او متجاوبة معها .

* * *

« وكما سخر الله سبحانه الجاذبية للانسان في اجراء الانهار تسير الهوينى او غير الهوينى الى سطح البحر ، سخرها له ايضا في كبح جماح البحر ، ومنعه ان يطغي بمائه الاجاج على النهر او على اليابسة ، فهي دائما

تحبسه في مستقره الذي هو كما قلنا من قبل اقرب مواطن سطح الارض الى مركز الارض .

فالبحر لا يستطيع ان يفارق مستقره ذلك الا بقوة اخرى تغلب قوة الجاذبية عليه وهيهات . فكأنما البحر ملجم بالجاذبية ان يهجم على اليابسة من الارض ، كلما هم بالهجوم بفعل المد ، او الريح ، او حركة الارض ، جذبته قدرة الله بلجام الجاذبية من خلف ، فيعود الى موطنه الذي كتب عليه ان يبقى مقيدا فيه .

ولقد من الله سبحانه على الانسان بهذا حين من عليه بحجزه بين البحرين ، او بين البحر والنهر ، في قوله :

« وهو الذي مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا »(٤٠) .

وليس ذلك البرزخ ــ والله اعلم ــ الا ارتفاع ما بين سطح البحر وسطح اليابسة التي يجري فيها النهر .

وليس ذلك الحجر المحجور ــ والله اعلم ــ الا الجاذبية بين البحر ومركز الارض وحبسها البحر في موطنه .

ولقد من الله على الانسان بذلك مرة اخرى ، وعاب عليه ، وعجب منه ، كيف يشرك مع الله الها آخر رغم ذلك ؟ في قوله سبحانه :

« امن جعل الارض قرارا ، وجعل خلالها انهارا ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزا ؟ أاله مع الله ؟ بل اكثرهم لا يعلمون »(٤١) .

فتفهم هذه الآية الكريمة في ضوء ما ذكرناه لك ، وتأمل تعقيبه سبحانه بقوله : « بل اكثرهم لا يعلمون » تعلم ان ذلك العلم من هذا الدين ، وان هذا

---

(٤٠) الفرقان : ٥٣ (٤١) النمل : ٦١

القرآن لم يأت الا من عند خالق الفطرة وانه لا غنى للمسلم عن علم الفطرة ان كان يريد حقا ان يفهم شيئا من سر الآيات الكونية في القرآن .

اهمية الجاذبية في السماء :

على ان اهمية الجاذبية في الكون اعظم من هذا بكثير ، فان الجاذبية كما قد عرفنا ليست بين الارض وما عليها فقط ، بل بين الارض وما عداها من الكواكب ، ثم هي ايضا بين كل كوكب وما عداه .

فكل كوكب في ملكوت الله يجذب كل كوكب آخر طبق سنة الجاذبية السابق ذكرها ، اي بقوة تتناسب مع حاصل ضرب كتلتي الكوكبين مقسوما على مربع المسافة بينهما ، وناتج كل هذه القوى الواقعة على الكوكب قوة واحدة يمسكه الله بها في مداره او فلكه ، او في موقعه الذي هو فيه اذا كان النجم من الثوابت .

فالجاذبية اذن على قدر علم الانسان الى الآن ، هي القوة التي يمسك الله بها سبحانه السموات والارض في مواقعها التي قدرها لها ، او هذا ان شئت هو ما ادركه الانسان الى الآن من سر قوله تعالى :

« ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ، ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده »(٤٢) .

وفي قوله تعالى : « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها »(٤٣) .

وما يشبهها من آيات القرآن الكريم ، اشارة الى قوى الجاذبية الخافية، التي هي بعد تقدير الله لها سبب بقاء اجرام السماء في اماكنها ، ومداراتها المقدرة لها .

---

(٤٢) فاطر : ٤١

(٤٣) الرعد : ٢

فانه اذا فهم من قوله تعالى : « بغير عمد ترونها » ان السموات مرفوعة بغير عمد مرئية ــ كما هو ظاهر الآية ــ كانت تلك العمد غير المرئية هي قوى الجاذبية بين بعض الكواكب وبعض .

لان العمد المعروفة المادية تؤثر اثرها ، وتحمل احمالها ، بارسال قوى ، او ضغوط تساوي وتضاد ضغوط الابنية عليها ، كما هو صريح علم القوى ، وكما يحصل بالضبط بين الكواكب المتجاذبة .

فاذا عجزت العمد عن ان تكون ضغوطها المضادة لضغوط المحمولات عليها مساوية لهذه الضغوط ، تكسرت الاعمدة والجدران ، او تشققت ، ويكون البناء اقرب الى التداعي بقدر ما بين ضغوط الاعمدة وضغوط الاحمال من فروق .

ففي حالة الاعمدة وما تحمل يوجد تضاغط واتزان ، كما ان هناك بين الاجرام السماوية تجاذبا وتوازنا ، وان اختلف مدى التوازن ونوعه في الحالين .

وينبغي ان نتذكر ايضا ان الاعمدة ضاغطة ، وليست هي ــ بداهة ــ نفس الضغوط الخارجة منها ، وان هذه الضغوط المقاومة لثقل الابنية غير مرئية وان الضاغط من عمود او جدار .

كذلك قوى التجاذب بين اجرام السماء غير مرئية ، وان رأينا اجرام السمـــاء .

فالتعبير بالعمد غير المرئية عن القوى التي رفع الله بها السموات هو ادق تعبير، وابلغه في الخطاب ، يفهم كل منه بقدر ما رزقه الله من الفهم والعلم .

« وتلك الامثال نضر بها للناس وما يعقلها الا العالمون »(٤٤) .

---

(٤٤) العنكبوت ٤٣

فقانون الجاذبية هو مفتاح فهم امثال الآيتين السابقتين من كتاب الله عز وجل ، الا ان الاشارة الى القانون في تلك الآيات الكريمة اشارة عامة من ناحية الوصفية .

وهاك شرحه كذلك لظاهرة طبيعية اخرى .

الامطـــــار :

« اما العوامل المسببة للامطار ــ ومحورها كما رأيت الكهربائية الجوية ــ فقد اشير اليها اشارات واضحة في اكثر من آية ، من تلك الآيات الكريمة آية الحجر :

« وارسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ، وما انتم له بخازنين »(٤٥) .

ومفتاح هذه الآية الكريمة هو : ترتيب انزال الماء ــ لسقيا الناس ــ على ارسال الرياح لواقح .

والناس يحملون وصف الرياح باللواقح على انها لواقح للزرع والشجر . وهذا منهم اغفال للنصف الثاني من الآية . اذ لو كان ما ذهبوا اليه هو المراد لترتب عليه ازكاء الزرع واخراج الثمر للناس ياكلونه لا انزال الماء مـــن السماء يشربونه .

اما وقد رتب الله على ارسال الرياح لواقح انزال الماء من السماء يسقاه الناس فقد تحتم ان يكون للواقح معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع . ويكون على ذلك ــ من ناحية ــ شبيها بلقاح الاحياء من زروع وحيوان . ومن ناحية اخرى يكون بينه وبين نزول الماء ما بين العلة والمعلول . او السبب والمسبب .

---

(٤٥) الحجر : ٢٢

وما عليك الا ان تذكر ما قدمنا لك عن تكاثف السحاب مطرا. وعن اثر كهربائيته في ذلك التكاثف . واثر الرياح في تمهيد سبل الاتحاد بين كهربائية وكهربائية في سحاب وسحاب لتعلم ان المراد من وصف الرياح بأنها «لواقح» ليس هو الاشارة الى اثرها في الجمع بين طلع اعضاء التذكير ، وبويضات التأنيث في النبات . ولكن هو الاشارة الى اثرها في الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة في السحاب .

فالملاحقة هنا بين قطيرات وقطيرات ، او بين زهر وزهر او نبـات ونبـات .

والشبه تام بين هذا التلقيح النباتي ، وذاك التلقيح الكهربائي او بالاحرى ليس هناك تشبيه مطلقا ، فان اتحاد الكهربائيتين تلقيح ، ان كان اتحاد الخليتين تلقيحا ، لانه في الحالين اتحاد تام بين شيئين متضادين متجاذبين : يختفي به الشيئان ، ويظهر مكانهما شيء آخر غيرهما .

في حالة التلقيح النباتي ينشأ من بين الخليتين خلية واحدة لها خواص غير خواص ايهما . وفي حالة التلقيح الكهربائي ينشأ من بين الكهربائيتين ضوء وحرارة لهما خواص غير خواص الكهربائيتين .

فهذا شرط الشبه الشديد للقاح الاحياء قد توفر .

اما شرط ترتب نزول الماء على تحقق هذا الالقاح . فقد عرفت توفره من ترتب تكاثف السحاب مطرا على التفريغ الكهربائي السحابي .

فآية الحجر تلك هي مظهر من مظاهر الاعجاز المتجدد للقرآن . لان تلاقح السحاب واثره في نزول المطر ، امر كان يجهله الانسان ، حتى كشف عنه العلم الحديث .

وهي طبعا مثل رائع من التطابق التام بين العلم والدين في الاسلام .

وآية اخرى اكثر تفصيلا من آية الحجر هي آية النور :

« ألم تر ان الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما، فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء . يكاد سنا برقه يذهب بالابصار »(٤٦).

ومفتاح هذه الآية الكريمة هو في قوله تعالى : « ثم يؤلف بينه » .

فقد كان الناس يمرون بهذه الكلمات الكريمة يرونها مجازا من المجازات البلاغية ، وهي حقيقة من امهات الحقائق الكونية .

وهذه الكلمات مفتاح الآية الكريمة ، لانها تدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها تلك الظواهر الجوية كلها ، فان التأليف بين السحاب ما هو الا اشارة واضحة ، بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية ، حتى يتجاذب ، ويتعبأ في الجو تعبئة الجيوش ، يتفق مع ما يريد الله ان يخلقه من بين السحاب : من برق ، وصواعق ، ومن مطر او برد .

فاذا كان السحاب المتجاذب بعضه فوق بعض ، نشأ السحاب الركام .

وقد ذكرنا لك قبل ما وجدوه من ان عمق الركام في العواصف الرعدية يكون عظيما . فاذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض تلك الطبقات وبعض ـ كما هو الغالب نزل المطر الناشيء عن ذلك التفريغ من خلال الطبقات الدنيا ، وتكبر قطراته اثناء نزولها بما تستلحقه من القطيرات ، وهو الودق.

فاذا بلغت الحالة الجوية الكهربائية في ذلك السحاب الركام من القوة ومن الاضطراب ما يسمح بوقوع تلك الظاهرة الغريبة ، ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين ، ثلجية علوية ومطرية سفلية ، تكون البرد ، ونما حتى يصير أثقل من ان يظل في اسر تلك القوى ، ونقمة ان كان كبيرا راجما .

---

(٤٦) النور : ٤٣

(فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء) . وليس يدري الانسان كثيرا عن الظروف التي يتكون فيها البرد ، لكنه يدري انها ظروف يسودهـــا اضطراب جوى عظيم .

هذا الاضطراب قد اشارت الآية اليه والى طبيعته اشارتين :

الاولى : حين شبهت السحاب الركام الذي يتكون البرد داخله من الجبـــال .

والثانية : حين اشارت الى عظم القوى الكهربائية المشتركة في تكوينه بنصها على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض او ما فوق ذلك : (يكاد سنا برقة يذهب بالابصار) .

وهناك آية اخرى اشارت الى الطبيعة الكهربائية لتلك الظواهر اشارة من نوع آخر ، هي آية الواقعة : « أفرايتم الماء الذي تشربون أانتم أنزلتموه من المزن ام نحن المنزلون : لو نشاء جعلناه أجاجا ، فلولا تشكرون »(٤٧) .

وتستطيع ـــ بعد ان عرفت العوامل المتعددة التي لا بد من تعاونها على تكوين المطر ـــ ان تدرك شيئا من سر الحجة في هذا السؤال العجيب : « أانتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ » .

لكن الاشارة التي اردنا ان نلفت النظر اليها هي في قوله تعـــالى : « لو نشاء جعلناه أجاجا ، فلولا تشكرون » .

والناس طبعا يسلمون بالقدرة الالهية على قلب العذب أجاجا ، ويظنون ان هذا يكون عن طريق الخوارق ، ولا يتساءلون : هل في سنن الله ما يسمح بهـــذا ؟

ولو تساءلوا وتطلبوا الجواب في العلم لوجدوه قريبا ، ولعرفوا ان

---

(٤٧) الواقعة : ٦٩ ـــ ٧٠

عذوبة الماء الذي يسقيهم الله اياه من السحاب هي بمحض رحمة الله .

ان الماء طبعا عذب بطبيعته ، وماء المطر معروف انه انقى المياه ، لكن طبيعة تكونه من السحاب تعرضه لان ينقلب اجاجا لا ينتفع به الانسان.

ان الهواء كما تعرف اربعة اخماسه ازوت او نيتروجين ، والازوت كما تعرف ايضا لا يكاد يتحد في العادة بشيء ، ولا بالاوكسيجين الذي يكاد يتحد بكل شيء .

لكن الكيمياويون وجدوا انهم يستطيعون بالكهربائية ان يحولوا الازوت غير الفعال الى ازوت فعال ، يتحد بأشياء كثيرة في درجة الحرارة العادية كما وجدوا انهم يستطيعون ان يحملوا الازوت على الاتحاد بالاوكسجين ، بامرار الشرر الكهربائي في مخلوط منهما ، ومن هذا الاتحاد ينشأ بعض أكاسير للازوت قابل للذوبان في الماء ، واذا ذاب فيه اتحد به ، وكون حمضين ازوتين ، احدهما : حمض الازوتيك ، او ماء النار ، كما كان يسميه القدماء ، واليه يصير الحمض الثاني .

وقليل من حمض الازوتيك في الماء كاف لافساد طعمه .

واظنك الآن بدأت تدرك الطريق الذي يمكن ان ينقلب به ماء المطر ماء اجاجا ، من غير خرق لاي سنة من سنن الله .

فهو نفس الطريق الكهربائي الذي يتكون به المطر ، وكل الذي يلزم : ان يتعدل التفريغ الكهربائي ، ويتكرر في الهواء تكرارا يتكون به مقدار كاف في تلك الاكاسيد الازوتية يذوب في ماء السحاب ، ويحوله حمضيا لا يسيغه الناس .

وهذا هو موضوع المن من الله على الناس . انه يكيف التفريغ بالصورة التي ينزل بها المطر ، ولا يؤج بها الماء .

ان شيئا من ذينك الحمضين لا بد ان يترك في ماء العواصف ، وهذا ضروري للحياة لانه يتحول في الارض الى الازوتات الضرورية لحياة النبات .

لكن الله برحمته وحكمته يقدر تكونه بحيث لا يتأذى به انسان ولا حيوان .

ولو شاء الله لكثره في ماء المطر ، فأفسده على الناس .

وسواء اشكر الناس هذه النعمة أم كفروها ، فان في قوله تعالى « لو نشاء جعلناه أجاجا » اشارة الى تلك العوامل الكهربائية التي يتكون بها المطر ، يفهمها من يفقه تلك الحقائق السابقة ، ومن يعرف ان الطريق الكهربائي هو احد الطرق العملية التي يمكن بها تحويل الازوت الجوي الى حمض .

الاعجاز البياني

انني واحد من الالوف التي قرأت هذا القرآن ، ومررت بمعانيه وغاياته مرور العابر حينا ، ومرور المتفرس المتأمل حينا آخر ..

والقرآن ليس الكتاب الوحيد الذي طالعته ، فقد طالعت مئات الكتب الاخرى على اختلاف موضوعاتها ، واقتربت من نفوس اصحابها ومن ألبابهم ، وأذنت لهذه الكتب ان تترك آثارها في فكري . لاقلبها على مكث . وانتفع بما اراه نافعا . وألفظ ما أراه باطلا ..

ومن اليسير علي وعلى اي قارىء مثلي ان يكون حكما معينا على الكتاب الذي تناوله . فقد اخلص من قراءة كتاب ما . ثم اقول :

هذا المؤلف واسع الاطلاع .

او اقول : ان ثقافته غزيرة في الاداب الاجنبية . او انه طائل الثروة في الادب العربي القديم . او انه ملم بآخر ما وصلت اليه الكشوف العلمية . او انه قصير الباع في اعطاء المعنى حقه . او انه مصطبغ بلون يساري . او انه من المعجبين بالفيلسوف الفلاني . او ان في نفسه عقدة تميل بأسلوبه الى الحدة من ناحية كذا . او انه مرن الفهم والاداء .. الخ .

وقلما اعجز عن استبانة الخصائص الانسانية المتباينة في تأليف الرجال الذين طالعت نتاجهم الذهني . او آثارهم الروحية .

وكثيرون غيري يجدون في انفسهم هذه القدرة .

وقد تلوت القرآن مرارا . ورجعت بصري في آياته وسوره وحاولت ان اجد شبها بين الاثر النفسي والذهني لما يكتب العلماء والادباء . وبين الاثر

النفسي والذهني لهذا القرآن فلم اقع على شيء البتة .

وقد احكم بأن كتابا ما صدر عن مؤلف في عصر كذا ، وان جنسية هذا المؤلف ومزاجه واهدافه هي كيت وكيت .

اما بعد قراءة القرآن ، فأجزم بأن قائل هذا الكلام محيط بالسموات والارض ، مشرف على الاولين والآخرين ، خبير بأغوار الضمائر واسرار النفوس ، يتحدث الى الناس تحدث السيد الحقيقي الى عباده الذين خلقهم بقدرته ، ورباهم بنعمته ويتناول الامم والقرون في هالة من الجبروت والتعالي؛ يستحيل ان تلمح فيها شارة لتكلف او ادعاء .

ومع رفعة المصدر الذي تحس ان القرآن جاء منه احساسك بأن هذا الشيء اتى من بعيد ، فانك ما تلبث ان تشعر بأن الكلام نفسه قريب من طبيعتك ، متجاوب مع فطرتك ، صريح في مكاشفتك بما لك وما عليك ، متلطف في اقناعك ، فما تجد بدا من انقيادك لادلته ، وانفساح صدرك لتقبله.

* * *

ولا تحسبن هذا الوصف متأثرا بمواريث التدين التي انتقلت الينا من الاولين . فان الكفار انفسهم ادركوا ان القرآن مباين بأسلوبه الخاص لجنس ما الفوا من كلام ، وملكتهم الدهشة لدى سماعه .

فقد روي ان الوليد بن المغيرة — وهو من زعماء الكفر في مكة — جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم ، واستمع الى ما يتلو من هذا القرآن . فلما انصت وتدبر ، كأنما رق له قلبه . فبلغ ذلك ابا جهل فأتاه وقال له :

يا عم ، ان قومك يرون ان يجمعوا لك مالا ليعطوك اياه ، فانك اتيت محمدا وملت الى دينه .. !

قال الوليد — مستنكرا عرض المال عليه — : لقد علمت قريش اني من اكثرها مالا .

قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك ، فيعلمون انك مكذب له وكاره . .

قال : وماذا اقول ؟ فوالله ما فيكم رجل اعلم مني بالشعر ، لا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن .

والله ما يشبه الذي يقوله محمد صلى الله عليه وسلم شيئا من هذا، ووالله ان لقوله لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه لمنير اعلاه ، مثمر اسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى ، وانه ليحطم ما تحته .

وغضب ابو جهل لهذه الشهادة ، فان الصدق في هذه القضية لا يعنيه ، بل يؤذيه .

والعراك على الرياسة في هذه البيئات يذهل عن شؤون الكفر والايمان.

فليكن محمد صلى الله عليه وسلم صادقا .

وليكن كلامه وحيا .

بيد ان المصلحة القبلية تقضي بكتمان امره ، وانتقاص شخصه .

ولذلك عاد ابو جهل يلح على الوليد : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . فقال الوليد : دعني افكر . .

وفكر الوليد ، ثم احب ان يكون منطقيا مع نفسه فقال :

هذا سحر . .

ولعله يقصد بالسحر ما جاءت به قوى خفية . لا يعرف الناس عادة حقيقتها .

وفي هذا الحوار نزل قوله عز وجل :

« ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع ان ازيد . كلا . انه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . انه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر ثم عبس وبسر . ثم ادبر واستكبر . فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر . سأصليه سقر »(٤٨) .

والواقع ان من الكذب الشائن على الفطرة والبداهة ، وعلى العقل والرواية ، ان يزعم زاعم بأن القرآن كلام عادي . وان اديبا راسخ القدم في البلاغة يستطيع ان يجيء بمثله .

* * *

وقد تساءل كثيرون عن اسرار هذا التفرد الذي اتصف به القرآن الكريم .

ولا شك ان المعاني التي تضمنها والتي نسج سداها ولحمتها من الحق الخالد اساس لهذا الاعجاز . بيد ان المعنى على جلاله ان لحقه قصور في صورته وأثره ، نقصت قيمته ، وطاشت دلالته .

وهناك معان جميلة في نفوس اصحابها ، ولو استبانت على السطور ولأشرقت بها الصحائف .. ولكنها مشاعر في النفوس فحسب .

ان الكلام لفي الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فتصوير المعنى الصادق حتى يبرز في الحروف كما يبرز الجمال الانساني في ابهى حلله ، وحتى ينتقل سناه الى الافئدة نفاذا اخاذا ركن ركين في خدمة الحقيقة ، وبسط سلطانها ، وازاحة العوائق من امامها ..

---

(٤٨) المدثر ١١ — ٢٦ .

وقد تعرض لفيف من علماء الاسلام لشرح الاعجاز البياني في القرآن الكريم .

وكنت انا نفسي كثير الطواف حول هذا الجمال البياني ، اسرح فيه الطرف . واردد فيه الفكر ، لكني كنت كالذي شغله الاعجاب بالجمال ، عن وضع تفاسير له ، او لعلني حاولت ثم غلبني القصور ، فتوقفت مؤقتا حتى تسنح فرصة . .

الى ان قرأت للمرحوم العلامة الشيخ [محمد عبدالله دراز] كتابه « النبأ العظيم ــ نظرات جديدة في القرآن » فرأيت الرجل ، وفي هذا المجال حقا ، واقاض في الحديث ، كأنما يتدفق من ينبوع لا يفيض ابدا .

وودت لو ان الرجل بقي حتى اكمل ما بدأ ، بيد ان المنية عاجلته ، فقضى وهو مجاهد في سبيل ربه ــ طيب الله ثراه ــ .

* * *

شرح الدكتور في تفصيل طويل المعاني التي احتواها القرآن والتي يستحيل ــ بالبراهين الحاسمة ــ ان تصدر عن بشر ، واحصى جملة الشبه التي يمكن ان تخطر ببال اي متردد مرتاب ، ثم اجهز عليها .

ومضى يستعرض ما يقوله المستقصي في طلب الحقيقة وبسط الاجابة في ادب وفقه . واسمع الى هذا البيان :

« فان قال : قد تبينت الآن ان سكوت الناس عن معارضة القرآن كان عجزا وانهم وجدوا في طبيعة القرآن سرا من اسرار الاعجاز يسمو به عن قدرتهم . ولكني لست افهم ان ناحيته اللغوية يمكن ان تكون من نطاق هذا السر . لاني اقرا القرآن فلا اجده يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية ».

فمن حروفهم ركبت كلماته . ومن كلماتهم الفت جمله وآياته . وعلى مناهجهم في التأليف جاء تأليفه .

فأي جديد في مفردات القرآن لم يعرفه العرب من موادها وابنيتها ؟ واي جديد في تركيب القرآن لم تعرفه من طرائقها . ولم تأخذ به في مذاهبها حتى نقول : انه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية ؟

قلنا له : اما ان القرآن الكريم لم يخرج في لغته عن سنن العرب في كلامهم افرادا وتركيبا فذلك في جملته حق لا ريب فيه . وبذلك كان ادخل في الاعجاز واوضح في قطع الاعذار « ولو جعلناه قرآنا اعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي »(٤٩) .

واما بعد . فهل ذهب عنك ان مثل صنعة البيان كمثل صنعة البنيان : فالمهندسون البناءون لا يخلقون مادة بناء لم تكن في الارض . ولا يخرجون في صنعتهم عن قواعدها العامة . ولا يعدو ما يصنعونه ان يكون جدرانا مرفوعة. وسقفا موضوعة . وابوابا مشرعة .

ولكنهم تتفاضل صناعاتهم وراء ذلك في اختيار امتن المواد وابقاها على الدهر واكنها للناس من الحر والقر . وفي تعميق الاساس . وتطويل البنيان . وتخفيف المحمول منها على حامله والانتفاع بالمساحة اليسيرة في المرافق الكثيرة . وترتيب الجحرات والابهاء بحيث يتخللها الضوء والهواء .

فمنهم من يفي بذلك كله . او جله . ومنهم من يخل بشيء منه او اشياء .. الى فنون من الزينة والزخرف يتفاوت الذوق الهندسي فيها تفاوتا بعيدا .

كذلك ترى اهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتى . يتفاوت حظها في الحسن والقبول .

وما من كلمة من كلامهم . ولا وضع من اوضاعهم بخارج عن مواد اللغة وقواعدها في الجملة .

---

(٤٩) فصلت : ٤٤

ولكنه حسن الاختيار في تلك المواد والاوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعي سمعك . ويثلج صدرك ويملك قلبك .

وسوء الاختيار في شيء من ذلك قد ينزل به حتى تمجه اذنك وتفتر منه نفسك . وينفر منه طبعك .

* * *

وينتقل الدكتور الشيخ محمد عبدالله دراز الى خصائص الاسلوب القرآني فيبين الاسباب التي بلغ بها درجة الاعجاز . ولولا ان الرجل حافظ فاقه لكتاب الله . وضليع مكين في آداب العربية . وعابد مخبت تتفتق امام بصيرته النيرة الحكم البالغات التي غابت عن غيره . ما استطاع ان يصور لنا هذه الخصائص ويجعلها منا رأى العين .. ونكتفي بنماذج قليلة من كلماته، لا تغني البتة عن مدارسة الكتاب ذاته . قال :

« خطاب العامة » و « خطاب الخاصة »

وهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس .

فلو انك خاطبت الاذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الاغنياء لنزلت بهم الى مستوى لا يرضونه لانفسهم في الخطاب .

ولو انك خاطبت العامة باللمحة والاشارة ، التي تخاطب بها الاذكياء ، لجئتهم من ذلك بما لا تطبقه عقولهم .

فلا غنى لك — ان اردت ان تعطي كلتا الطائفتين حظها كاملا من بيانك — ان تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الاخرى .

كما تخاطب الاطفال بغير ما تخاطب به الرجال .

فأما ان جملة واحدة تلقى الى العلماء والجهلاء ، والى الاذكياء والاغبياء، والى السوقة والملوك ، فيراهـا كل منهم على مقياس عقله . وعلى وفق

حاجته . فذلك ما لا تجده على اتمه الا في القرآن الكريم .

فهو قرآن واحد ، يراه البلغاء اوفى كلام بلطائف التعبير ، ويراه العامة احسن كلام واقربه الى عقولهم ، لا يلتوي على افهامهم ، ولا يحتاجون فيه الى ترجمان وراء وضع اللغة .

فهو متعة العامة والخاصة على السواء ، ميسر لكل من اراد : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »(٥٠) .

* * *

اقناع العقل و « امتاع العاطفة »

وفي النفس الانسانية قوتان : قوة تفكير ، وقوة وجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة اختها .

فأما احداهما : فتنقب عن الحق لمعرفته ، وعن الخير للعمل به .

واما الاخرى ، فتسجل احساسها بما في الاشياء من لذة والم .

والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ، ويطير الى نفسك بهذين الجناحين ، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية ، والمتعة الوجدانية معا.

فهل رأيت هذا التمام من كلام الناس :

نقد عرفنا كلام العلماء والحكماء ، وعرفنا كلام الادباء والشعراء ، فما وجدنا من هؤلاء وهؤلاء الا غلوا في جانب ، وقصورا في جانب .

---

(٥٠) القمر : ١٧

فأما الحكماء : فانما يؤدون اليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك ، ولا تتوجه نفوسهم الى استهواء نفسك ، واختلاب عاطفتك .

فتراهم حين يقدمون اليك حقائق العلوم ، لا يأبهون لما فيها من جفاف وعرى ونبو عن الطباع .

واما الشعراء : فانما يسعون الى استثارة وجدانك ، وتحريك اوتار الشعور من نفسك . فلا يبالون بما صوروه لك ان يكون غيا او رشدا ، وان يكون حقيقة او تخيلا . فتراهم جادين وهم هازلون . يستبكون وان كانوا لا يبكون ويطربون وان كانوا لا يطربون .

« والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون »(٥١) .

وكل امرىء حين يفكر ، فانما هو فيلسوف صغير . فسل علماء النفس.

« هل رأيتم احدا تتكافأ فيه قوة التفكير . وقوة الوجدان . وسائر القوى النفسية على سواء : ولو مالت هذه القوى الى شيء من التعادل عند قليل من الناس . هل ترونها تعمل في النفس دفعة واحدة وبنسبة واحدة ؟ ».

يجيبوك بلسان واحد :

كلا . بل لا تعمل الا مناوبة في حال بعد حال . وكلما تسلطت واحدة منهن اضمحلت الاخرى . وكاد ينمحي اثرها .

فالذي ينهمك في التفكير تتناقص قوة وجدانه . والذي يقع تحت تأثير لذة او ألم يضعف تفكيره . وهكذا لا تقصد النفس الانسانية الى جانب من هاتين الغايتين قصدا واحدا . والا لكانت مقبلة مدبرة معا .

---

(٥١) الشعراء : ٢٢٤ ــ ٢٢٦

وصدق الله : « وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه »(٥٢) .

فكيف تطمع من انسان في ان يهب لك هاتين القلبتين على سواء ؟

وما كلام المتكلم الا صورة الحال الغالبة عليه من بين تلك الاحوال .

هذا مقياس تستطيع ان تتبين به في كل لسان وقلم ، اي القوتين كان خاضعا لها حين قال او كتب :

فاذا رايته يتجه الى تقرير حقيقة نظرية . او وصف طريقة عملية . قلت : هذا ثمرة الفكـرة .

واذا رايته يعمد الى تحريض النفس او تنفيرها . وقبضها او بسطها . واستثارة كوامن لذتها او المها . قلت : هذا ثمرة العاطفة .

واذا رايته قد انتقل من احد هذين الضربين الى الآخر فتفرغ له بعدما قضى وطره من سابقه ، كما ينتقل من غرض الى غرض . عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه .

واما ان اسلوبا واحدا ، يتجه اتجاها واحدا ، يجمع في يديك هذين الطرفين معا ، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة اوراقا وازهارا واثمارا معا ، او كما يسري الروح في الجسد ، والماء في العود الاخضر ، فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر ، ولا هو من سنن الله في النفس الانسانية .

فمن لك اذا بهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضي اولئك الفلاسفة المتعمقين ، ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المرحين ؟

ذلك الله رب العالمين .

---

(٥٢) الاحزاب : ٤

فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن .

وهو القادر على ان يخاطب العقل والقلب معا بلسان ، وان يمزج الحق والجمال معا ، يلتقيان ولا يبغيان ، وان يخرج من بينهما شرابا خالصا سائغا للشاربين .

وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت .

الا تراه في فسحة قصصه واخباره ، لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة ؟

أو لا تراه في معمعة براهينه واحكامه ، لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق ، وتحذير وتنفير ، وتهويل وتعجيب ، وتبكيت وتأنيب ؟ يبث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها :

« تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله »(٥٣) .

« انه لقول فصل وما هو بالهزل »(٥٤) .

وكتب السيد هبة الدين(٥٥) الحسيني رسالة جيدة في اعجاز القرآن لخصها الاستاذ عيسى صباغ في هاتين النظرتين :

يقول الشيخ هبة الدين : لا ريب ان القرآن قد ادهش نوابغ العرب، واخرس شقشقة البلغاء في عصره .

---

(٥٣) الزمر : ٢٨

(٥٤) الطارق : ١٣ ، ١٤

(٥٥) من علماء الشيعة الاجلاء ، وقد تعمدنا نشر الخلاصة كاملة ليستبين القارىء المسلم مبلغ فقه هذا العالم بطبيعة الاعجاز .

ولكن ، الاسلوبه الرائق ، ولفظه الربق ، ونظامه العجيب ؟ أم لبدائع معانيه الجذابة ، وعظمة مبادئه ، ولطائف امثاله فيه ؟

لا نعلم .. وانما نعلم انه ادهش ويدهش العربي العارف .. وربما كان اثره في العامة من النواحي الاولى ، وفي الخاصة من النواحي الاخرى .

كما اثر بأنبائه الغربية ، وبأسرار في اشاراته واستعاراته في الاجيال السائرة .

اجل ، هذا القرآن يدهش من اي وجه كان ، وآية عبقريته ساطعة. وقد استعان به منقذ العرب بعد ما غدوا سكارى بخمرته . فأحيا ذكرهم ، واصلح امرهم ، وادبهم كما شاء وشاءت المصلحة واستخرجهم من ظلمة العادات القاسية الى ضياء عيشة راضية .

ثم استخدم اولئك المهتدين بأنوار القرآن كألسنة لدعوة الامم ، وسيوف لادانة العالم .

ويستطرد الى بيان ميزة القرآن بين المعجزات فيقول بأسلوبه السهل البليغ : « ان اكبر ميزة في القرآن — وهي التي وضعته فوق المعجزات كلها — هي انه مجموعة فصول ليست سوى صبابة احرف عربية .. من ايسر اعمال البشر ، وقد فاقت مع ذلك عبقرية كل عبقري .. فلم يخلق رب الانسان للانسان عملا — بعد التفكر — أيسر من الكلام » ..

وكلما كان العمل البشري ايسر صدورا ، واكثر وجودا ، قل النبوغ فيه وصعب افتراض الاعجاز والاعجاب منه .

هذا . ونرى الناس في عهدنا مطبوعين على استحباب الشهرة والاثرة وطلب التفاضل والتفاخر . فاذا راوا احدهم يبغي التفوق عليهم بصناعته ، اندفعوا بكل قواهم الى مباراته ، وجدوا لكي يأتوا بخير منه .. وقد فطر البشر على مثل هذا الشعور .. والشعب العربي المعاصر للنبي ، كان ولا ريب منطويا على هذا الشعور تماما .

فلماذا لم يندفع الى مباراة القرآن ؟ ولا سيما بعد ما شاهدوا من صناعة هذا النبي فائدة وعائدة .

ولم لم يعارضوا عبقريته في البلاغة وهو فرد وهم الوف ؟

العدم وجود اساتذة فيهم لهذه الصناعة ؟ كلا . لقد كانت تربة الحجاز خصبة منبتة لاساتذة الفصاحة والبلاغة . .

فلم لم ينفعوا الى معارضته بالمثل ، وهو المعارض لهم بكل ما يستطيع من قوة ؟ ولماذا اندفعوا الى مقابلته ؟ والى مقابلته بالاسنة دون الالسنة ؟ وبالحراب بدل الكتاب ؟ حتى افرغوا كنانتهم برمي آخر نبلة فيها ولم ينجحوا.

ليت شعري مهوبم اعجزت عبقرية ذلك الفرد المستضعف فيهم وهم ألوف ، ومعتزون بألوف ؟ وكيف اعجزتهم اسطر وكلمات وحروف . .

فمحمد الامي صلى الله عليه وسلم المخاطب بآية : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك »(٥٦) ، ربيب البادية ، وخريج حي بني سعد، ينهض في ام القرى بدعوة نسخ الانظمة ، وتعديل الشرائع واصلاح العالم . .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى : انه افنى قواه في معارضة اقوام سفلة، وكابد الاذى والاسى من الافواه والايدي ، وقضى حياته في ادارة الحروب والمغازي ، وهو ما بين هذه وتلك يأتي بكتاب يعجز عن مباراته بلغاء عصره ونوابغ دهره ، لا بد وان يدهش الناس أمره ، وحق لهم ان يندهشوا ، لان الرجل الامي قد يفوز بالعبقرية ، ولكن عبقريته لا بد ان تتجه اما الى ميادين الحروب فيكون من عظماء الفاتحين ، او تتجه الى اندية الراي ومجالس الشورى فيكون من كبار الساسة والدهاة . .

اما ان يجمع تلكما الحسنيين ويضيف اليهما نبوغا في العلم ، ونبوغا في

---

(٥٦) العنكبوت : ٤٨

التشريع والقضاء ، ونبوغا في جذب عواطف الخاصة والعامة، فلم يسمع به التاريخ ، ولم يسمع به الزمان ..

وربما عد الفن وجوده ضربا من المحال .. اذن فالدهشة طبيعية لدى مشاهدة بطل كهذا ..

بطل في العلم والنظم ..

بطل في السياسة والفلسفة معا ..

بطل في الارادة وفي مداراة الخاصة والعامة جميعا ..

بطل في التشريع والتنفيذ حتى على نفسه ..

بطل في كل ذلك ، ثم هو فوق ذلك امي غير متعلم ..

واكثر ما يعجب فيه : انه لم يتخصص بفن واحد من الفنون لا في الفاظه ونظمه ، ولا في معانيه وحكمه . فبينما نراه يتصدر ببلاغة عجبى ، وامثال عذبى ، اذ يجري في ميدان العلم او مضمار الفلسفة ، فيبدي من اسرار الطب والطبيعة وكائنات الارض وكامنات السماء ونواميس الكون ما لا تفي بشرحه الصحائف مما نطق به امس وانكشف سره اليوم .. والحالة انه لم يملك شيئا منها يوم اخبر عنها ..

ثم نراه خائضا في تاريخ القرون الخالية والامم البائدة ، غير مستند على آثار واسفار ، ثم تأتي الحفريات والاثريات مصدقتين له وشارحتين اياه ، بعد قرون واجيال ..

وكذلك نراه يسن نظاما ، وينسخ احكاما ، غير مستند في ذلك الى مشورات او مؤتمرات ، ولكن الظروف الاخيرة، والتجارب المتعاقبة، ومؤتمرات عصورنا الحالية تذعن له ، وتعلن اتفاقها معه . ذلك عدا الانباء الغيبية عن احوال افراد واقوام . هي هي والله بواعث الاعجاب والدهشة العامة التي

اعترت وتعتري الناس من عرب ومستعربة .. كلما تلوا القرآن او تليت عليهم آياته ، وفسرت بيناته .

وسنتناول في نظرتنا الثانية اسس اعجاز القرآن .

* * *

قال : رأينا في نظرتنا السابقة نموذجا شائقا في التفكير والتحليل في اسلوب عصري سائغ جرى به قلم العلامة هبة الدين الحسيني الشهرستاني تمهيدا لبحثه في اعجاز القرآن ..

يبدأ علامتنا تحليله بسؤاله : هل تحدى الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن ؟ ثم يقول : صدور التحدي من الرسول صلى الله عليه وسلم لاهل الصنعة اساس ينبغي ثبوته قبل اي شيء آخر ، حتى يكون المعجز معجزة ، وعدم التصدي بعد التحدي ملزم للخصم .. ويتبع هذا بشواهد الآيات الناطقة بالتحدي . ومنها هذه الآية :

« وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين »(٥٧) .

ولكن فصحاء العرب اعرضوا عن هذا التحدي المتكرر ، واحجم ابو سفيان عن تجنيد جيش شعراء الجزيرة وادبائها لمعارضة القرآن ، بل جد في تأليف جيش من عشرة آلاف مقاتل لمقاتلة النبي وحزبه ..

والى جانب هذا فشل من حاولوا المعارضة ..

ثم نجد امثال الوليد ولبيد والاعشي وكعب بن زهير يذعنون لسمو معاني القرآن وبلاغته ؟ وقد كانوا معدودين اساطين البلاغة في زمنهم ..

---

(٥٧) البقرة : ٢٣

وتؤثر روعة القرآن في نفوس العرب فيرفعون القصائد السبع المعلقات من حول الكعبة وهي خير ما جادت به قرائح الشعراء العباقرة امثال امرىء القيس وطرفة ابن العبد وكعب بن زهير وعمرو بن كلثوم، خجلا منهم وانفعالا، كالذي زين البيت بقناديل الزيت ، ثم سطعت من حولهن مصابيح الكهرباء القوية ـــ على حد تعبير المؤلف ـــ ..

وقد حاول افذاذ من الادباء بعد معارضة القرآن فلم يوفقوا وذكر المؤلف عددا منهم ، ولعل اشهرهم عبدالله بن المقفع ..

ثم استشهد المؤلف بآراء نخبة من اعلام الفرنجة النقاد والادباء في تقدير مزايا القرآن واعجازه ..

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى تشريح هذه المزايا، فيعد منها ثمانية وعشرين كرؤوس اقلام وهي :

١ ـــ فصاحة الفاظه الجامعة لكل شرائطها .

٢ ـــ بلاغته بالمعنى المشهور ، اي موافقة الكلام لمقتضى الحال . ومناسبات المقام ، او بلاغته الذوقية المعنوية .

٣ ـــ مسحة البداوة ، اي عروبة العبارات الممثلة لسذاجة البداوة مع اشتمالها على بسائط الحضارة .

٤ ـــ توفر المحاسن الطبيعية فوق المحاسن البديعية .

٥ ـــ ايجاز بالغ حد الاعجاز بدون ان يخل بالمقصود .

٦ ـــ اطناب غير ممل في مكرراته .

٧ ـــ سمو المعنى وعلو المرمى في قصد الكمال الاسمى .

٨ ـــ طلاوة اساليبه الفطرية ومقاطعه المبهجة ، واوزانه المتنوعة.

٩ ـــ فواصله الحسنى واسجاعه الفطرية .

١٠ ـــ انباؤه الغيبية واخباره عن كوامن الزمان وخفايا الامور .

١١ ــ اسرار علمية لم تهتد العقول اليها بعد عصر القرآن الا بمعونة الادوات الدقيقة ، والآلات الرقيقة المستحدثة .

١٢ ــ غوامض احوال المجتمع ، وآداب اخلاقية تهذب الافراد ، وتصلح شؤون العائلات ..

١٣ ــ قوانين حكيمة في فقه تشريعي فوق ما في التوراة والانجيل وكتب الشرائع الاخرى ..

١٤ ــ سلامته عن التعارض والتناقض والاختلاف ..

١٥ ــ خلوصه من تنافر الحروف وتنافي المقاصد .

١٦ ــ ظهوره على لسان بدوي امي لم يعرف الدراسة ، ولا الف محاضرة العلماء ، ولا جاب الممالك سائحا مستكملا .

١٧ ــ طراوته في كل زمن وكونه غضا طريا كلما تلي وأينما تلي ..

١٨ ــ اشتماله على السهل الممتنع الذي يعد في الشعر ملاك الاعجاز والتفوق النهائي .

١٩ ــ قوة عباراته لتحمل الوجوه وتشابه المعاني ..

٢٠ ــ قصصه الحلوة وكشوفه التاريخية من حوادث القرون الخالية ..

٢١ ــ امثاله الحسنى التي تجعل المعقول محسوسا وتجعل الغائب عن الذهن حاضرا لديه .

٢٢ ــ معارفه الالهية كأحسن كتاب في علم اللاهوت ، وكشف اسرار عالم الملكوت ، وأوسع سفر من مراحل المبدأ والمعاد .

٢٣ ــ عجاباته البديعية وطرق اقناعه الفذة .

٢٤ ــ تعاليمه العسكرية ومناهجه في سبيل الصلح وفنون الحرب .

٢٥ ــ سلامته ن الخرافات والاباطيل التي من شأنها اجهاز العلم عليها كلما تكاملت اصوله وفروعه .

٢٦ ــ قوة الحجة وتفوق المنطق .

٢٧ ــ اشتماله على الرموز في فواتح السور ، ودهشة الفكر حولها وحول غيرها .

٢٨ ــ جذباته الروحية الخلابة للالباب ، الساحرة للعقول ، الفتانة للنفوس.

ويضاف الى ذلك تضمنه الاسس لشريعة انسانية صالحة لكل زمان ومكان .

المحتويات

الصفحة		الموضوع
٣	.....	هذه الرسالة
٥	.....	مقدمة
٧	.....	ثبوث القرآن الكريم
		كيفية تعلم القرآن الكريم
		الترغيب في تعلم القرآن الكريم
١٦	.....	كيف تم جمع القرآن الكريم
		دفاع عن ابن عباس
٣٠	.....	ثبوت .. وثبوت
		بحث هام حول تاريخ الاناجيل الاربعة
٣٨	.....	الاعجاز النفسي للقرآن الكريم
٤٦	.....	الاعجاز العلمي للقرآن الكريم
٦١	.....	الاعجاز البياني للقرآن الكريم

جمعية التوجيه الاسلامي الخيرية

قسيمة اشتـــراك

لنشر الثقافة الاسلامية والتوعية الدينية

ايها الاخ الكريم : هذه القسيمة لاشراكك في اعمـــال الخير ونشر وتوزيع الكتب الاسلامية ــ مجانا ــ في سبيـــل توعية اسلامية هادفة ، فاملأها بما تطيب نفسك الخـــيرة وارسلها الى صندوق البريد رقم ــ ٣٠٤ ــ طرابلس ــ لبنان.

الاســـم : _____

المهنـــة : _____

العنوان : _____

الهاتـــف : _____

قيمة الأشتراك : _____

ملاحظة : اكتب امام مساعدتك احدى الكلمات التالية :

شهرية ــ سنوية ــ مقطوعة .

التاريخ التوقيع